ABEGS.ORG

لا يكفي أن يكون لك عقل جيد، الأهم هو استخدامه جيداً

رحلة في دنيا المعرفة

أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلِم المستقبل



تأليف:

أ. د. عبداللطيف حسين حيدر الحكيمي

من إصدارات:

مكتب التربية العربي لدول الخليج



رحلة في دنيا المعرفة

أنيــروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلِم المستقبل

أعده بتكليف من

مكتب التربية العربي لدول الخليج

أ. د. عبداللطيف حسين حيدر الحكيمي

الناشر

مكتب التربية العربي لدول الخليج

الرياض ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر:
مكتب التربية العربي لدول الخليج
الحكيمي ، عبد اللطيف حسين حيدر
رحلة في دنيا المعرفة : أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يظلم المستقبل / عبد اللطيف حسين حيدر الحكيمي – الرياض ١٤٣٧هـ
١٦٦ ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك: ١-٠٠-٦٠٠-١٥-٩٩٦٠
١-القصص العربية ، اليمن   ٢- التربية الإسلامية .
أ. العنوان
ديوي ٨١٣،٣٩٥٣٢   ١٤٣٧/٢٠٢

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٢٠٢
ردمك: ١ -٠٠-٦٠٠-١٥-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالي:

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

(سورة النحل، ٧٨)

الناشر
مكتب التربية العربي لدول الخليج
ص. ب (٩٤٦٩٣) – الرياض (١١٦١٤)
تليفون: ٠٠٩٦٦١١٤٨٠٠٥٥٥
فاكس ٠٠٩٦٦١١٤٨٠٢٨٣٩
www.abegs.org
E-mail: abegs@abegs.org
المملكة العربية السعودية

المحتويات

تقديم

تـُعدُّ القصة التربوية من الأساليب التربوية غير المباشرة، بما تقدمه من سرد وأحداث وشخصيات، تقوم بتنشيط التفكير وتنميته، وإيقاظ العقول وتنشيطها، بما يفضي إلى إضافة تربوية مفيدة، تغني الإرشاد والتوجيه المباشر.

وتروي قصة " رحلة في دنيا المعرفة: أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلِم المستقبل " رحلة تعلّم طويلة امتدت نحو خمسين عامًا، استخلص منه المؤلف مقاربة جديد في تحسين التعليم وتنمية التفكير المنتج بوصفها سلوكات ذكية توقظ عقول المتعلمين، وتنشطها، وتوجه اهتمامهم لاكتساب معارف جيدة، حيث يكونون قادرين على عيش حياة كريمة هانئة، وليصبحوا أعضاءً فاعلين في مجتمعهم وقادرين على دفع عجلة التنمية المستدامة في بلادهم إلى الأمام.

وتهدف القصة إلى إكساب المتعلمين سلوكات ذكية تمكّنهم من تطوير أنفسهم، على نحو يجعلهم قادرين على التعلّم وتنمية التفكير والاستمرار في ذلك طوال حياتهم بخاصة عند التعامل مع المواقف التعليمية، أو حلّ المشكلات، أو التفكير في أي قضية تمس حياتهم؛ فهي تولّد لديهم طاقة ذاتية داخلية كبيرة، تنير عقولهم، وتشحذ هممهم، وتزودهم بالوقود العقلي اللازم للتعامل مع مختلف المواقف.

نأمل أن تكون القصة مرشدًا ودليلاً للتربويين وأولياء الأمور وقادة التعليم في جميع مراحله، بما يعود بالنفع عليهم وعلى طلابهم، وأن يسدَّ ثغرة في المكتبة التربوية العربية. ونشيد بالجهد المتميز الذي بذله الأستاذ الدكتور عبداللطيف حسين حيدر الحكيمي في تأليف الكتاب، حتى جاء بهذه الصورة.

والله الموفق،،،

الإهداء

إلى: فائز، وأمل، وعائدة، ونديم ، وياسمين، وجميع
أبناء وبنات بلادي التواقين إلى حياة أفضل.

المقدمة

تعرض هذه القصة مقاربة جديدة في تحسين التعليم وتنمية التفكير مستندةً إلى خبرة الباحث، ونتائج بحوث علم النفس المعرفي، ونظريات المعرفة، وأعمال مفكرين بارزين مثل: جون ديوي، وجان بياجيه، وليف فيجوتسكي، وروبرت مارزانو، والثنائي كوستا وكاليك. وتستفيد القصة من نتائج البحوث التي درست الأفراد الناجحين في مختلف مناحي الحياة، والذين تبين أنهم يستخدمون عادات تفكير مميزة في حياتهم الشخصية، والمهنية، والعامة.

وتنادي هذه المقاربة الجديدة بتبني عادات التفكير المنتج في التعليم وتنمية التفكير بوصفها أدوات عقلية يحتاج أن يغرسها القادة التربويون وواضعو المناهج الدراسية والمعلمون وأولياء الأمور لدى المتعلمين في جميع مراحل التعليم: مرحلة رياض الأطفال، مرورًا بالمرحلة الأساسية، ثم المرحلة الثانوية، وانتهاءً بالمرحلة الجامعية. ويحتاج المتعلمون إلى تنميتها بحيث تصبح عادات لديهم، لإيقاظ عقولهم وتنشيطها، وتوجيه اهتمامهم لاكتساب معارف جديدة.

وتهدف هذه المقاربة الجديدة إلى إكساب المتعلمين سلوكات ذكية تمكّنهم من تطوير أنفسهم، على نحو يجعلهم قادرين على التعلّم وتنمية التفكير والاستمرار في ذلك طوال حياتهم عند التعامل مع المواقف التعليمية، أو حل المشكلات، أو التفكير في أي قضية تمس حياتهم؛ فهي تولّد عندهم طاقة ذاتية داخلية كبيرة، تنير عقولهم، وتشحذ هممهم، وتزودهم بالوقود العقلي اللازم للتعامل مع مختلف المواقف.

وقد تمَّ عرض هذه المقاربة بأسلوب قصصي، يُلخص رحلة تعلّم فتى طويلة الأمد، بدأها في طفولته منطلقًا من الريف، ثم أثناء تعلّمه في مدن مختلفة. كما تعرض خلاصة تجربته التعليمية عندما أصبح شابًا راشدًا يَدرُس خارج بلاده؛ وأخيرًا، تعرض

هموم هذا الفتى ومجموعة من زملائه، عندما وجدوا أنفسهم ملتزمين مهنيًّا وأخلاقيًّا بتطوير التعليم في بلادهم.

والقصة لا تدور حول شخصية بعينها، وإنما قد تمثل مسيرة جيل بكامله، في أي بلد عربي؛ جيل بدأ مسيرته التعليمية مبكرًا خلال ستينيات القرن الماضي، وامتدت حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؛ حيث مرَّ هذا الجيل بخبرات تعلّم تراكمية، تكاد تكون متشابهة، سواء داخل البلد أم خارجها.

وقد عُرضت هذه المقاربة الجديدة في صورة قصصية استنادًا إلى قناعة راسخة بأن قضية التربية والتعليم لا تخصّ التربويين وحدهم، بل هي قضية رأي عام، ينبغي أن يشارك فيها جميع أفراد المجتمع. ويُؤمّل من استخدام هذا الأسلوب أن تلقى القصة الانتشار الذي تستحقه، بُحكم أهمية موضوعها، لتشكيل وعي جديد حول موضوعها، بهدف بلورة رأي عام ضاغط يدفع بتبني مقاربة جديدة في تحسين التعليم وتنمية التفكير، بما يحقق إحداث نقلة نوعية في طريقة إعداد جيل المستقبل، جيل القرن الحادي والعشرين.

وقد تمَّ اختيار عنوان لهذه القصة، هو: *"رحلة في دنيا المعرفة: أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلِم المستقبل"*، لإبراز أهمية المعرفة في تشكيل حياة الإنسان؛ والتأكيد على دور النظام التعليمي، والمعلمين، وأولياء الأمور، والمجتمع في غرس عادات التفكير المنتج لدى المتعلمين؛ ليتمكّنوا من اكتساب منهجية فعالة لتحصيل المعرفة وتنمية تفكيرهم، ليكونوا قادرين على عيش حياة كريمة هانئة، وليصبحوا أعضاءً فاعلين في دفع عجلة التنمية المستدامة في بلادهم إلى الأمام.

البداية

"ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ".
(أبو الطيب المتنبي)

في قرية صغيرة تقع في ريف إحدى البلدان التي يتوق شعبها للتقدم والنماء؛ عاش "منير" سنوات حياته الأولى عيشة مليئة بالبراءة، والسكون، والتأمل.

وعلى خلاف العديد من أولاد قريته، كان "منير"، طفلاً هادئًا – لا يحب الضوضاء– يفضل الابتعاد عن كثير من أقرانه، وكان يقضي معظم وقته في المذاكرة، والتأمل، واللعب، ورعي الخروف الذي أعطاه إياه جدّه.

يتصف عالم القرية التي نشأ فيها منير، كما هو شأن أغلب القرى في بلاده، بأنه عالم هادئ، يقتصر على بيوت قليلة ومتواضعة تحيط بها أرض زراعية خضراء، وتُظلّها سماءٌ صافيةُ الزرقة معظم أيام السنة، وتتغلغل أشعة الشمس الذهبيَّة في المنازل والمزارع والطرق حتى تصل قلوب الناس. ويلفها ليل هادئ غالبًا ما تكون سماؤه صافية ونجومه زاهية. أما عدد أهالي القرية فلا يتعدّى العشرات ويعرف بعضهم بعضًا، وتربط بينهم أواصر القربى والصداقة. وتقتصر وسائل المواصلات على الدواب التي تسلك طرقًا ضيقة ومتعرجة. أما كُتاب القرية (المعلامة) فهو بسيط، يقع تحت شجرة كبيرة بالقرب من منزل فقيه القرية (مُدرس الكُتّاب). والحياة بسيطة وهادئة في معظم الأوقات، إلا من بعض الخلافات التي تنشب بين أهل القرية نتيجة جهل وعدوانية بعضهم.

يصحو منير من نومه مبكرًا، يصلي الفجر مع جدّه، ويتناول فطوره مع أسرته، ثم يذهب مع جيرانه من الأطفال إلى الكُتاب، الذي يتوسط مجموعة من القرى المتجاورة

لتعلّم القرآن الكريم وأساسيات القراءة والكتابة. وعند الظهيرة، يعود منير إلى المنزل لتناول وجبة الغداء مع أسرته. بعدها يستريح قليلاً، ثم يتوجه لرعي خروفه في المراعي المجاورة لقريته. وكان يرافق الخروف عن قرب تارة، وينشغل عنه في اللعب بين الأشجار وفي تأمل الكائنات الصغيرة بين الشجيرات من حوله تارة أخرى. ويستمر في ذلك إلى ما قبل الغروب ثم يعود إلى المنزل. أما في يوم الجمعة، يوم العطلة الأسبوعة، فكان يقوم برعي خروفه في مرعى خصيب يبعد كثيرًا عن القرية، وكان ينتهز تلك الفرصة ليأخذ خروفه قبل الظهيرة إلى بركة ماء مجاورة ليتركه يسبح في الماء، ويظل يرقبه عن قرب، ويتحين الفرصة لمشاهدة الضفادع التي تسبح في ماء البركة. بعد ذلك يترك الخروف يجف، ثم يعود به إلى المنزل قبيل صلاة الجمعة؛ ليستحم، ويرافق جده إلى مسجد القرية.

كان منير طفلاً صادقًا وراضيًّا عن حياته. لكن على الرغم من رضاه عن تلك الحياة البسيطة الهادئة، لم يكن يحس بالهدوء في بعض الأحيان نتيجة ما يراه من قسوة بعض الناس على بعضهم، ونتيجة سماعه بعض المشكلات التي كان يثيرها بعض الناس القساة. سبب هذا لمنير كثيرًا من القلق وعدم الاطمئنان. وكان يفكر، بين الفينة والأخرى، بما يراه من الأخطاء والشرور في هذا العالم الصغير الذي يعيش فيه، وما يسمع من قصص مماثلة في القرى المجاورة لقريته. تلك الأفكار التي كانت تجول في خاطره دفعته للتساؤل: "لِمَ كل هذه الأخطاء وتلك الشرور التي تصدر عن بعض بني البشر؟ ومن له أن يوقفها؟ وكيف يمكن أن يعيش الناس حياة هادئة خالية من الشرور؟".

مع مرور الأيام وتراكم الأحداث، طغت تلك الأسئلة على تفكير منير، وولّدت لديه همومًا كثيرة جعلته يشعر بالحزن بين الحين والآخر. لكن من حُسن حظّه أن كان لديه مَن يشكو إليه همومه ويخفف عنه أحزانه. فقد كان يشكو همومه إلى جده الذي كان يفسر له كثيرًا من تلك الأمور ويوضح له أسباب النزاعات بين الناس، فقد كان جده ذا عقل راجح، أهله إلى أن يتوسط بين الناس في كثير من الأحيان لحلِّ بعض تلك

المشكلات. تلك الجلسات الصادقة مع جده كانت تخفف عنه الكثير من الحزن الذي كان يسيطر عليه، لكنها لم تُزِله تماماً.

ذات يوم، عاد منير إلى المنزل ووجد جده طريح الفراش، فقد تقدم به العمر، وبدأ المرض يدُب في جسده الهزيل. وكان لمشهد الناس وهي تفد إلى المنزل لزيارة الجد؛ اطمئنانًا عليه، والاضطراب والقلق الذي لمحه في وجوه الأهل والأقارب أثرًا كبيرًا في نفسيته. بكى منير لمرض جده، ودعا الله أن يمُن عليه بالشفاء. لكن المرض طال وأشتد عليه حتى توفاه الله. كان لهذه الحادثة الأليمة، وما رافقها من بكاء النسوة وعويلهن، والطقوس المحزنة الأخرى التي لم يعتدها من قبل؛ وقع الصدمة على نفسه الغضة، وأثرت فيه كثيرًا، وزادت من أحزانه المتراكمة.

افتقد منير جده وبكاه كثيرًا، فقد كان بالنسبة له مرشدًا ومعلمًا وأبًا حنونًا. ولم يجد بعد وفاته مَن يشاركه همومه، ويخفف عنه أحزانه. فقد كان والده يعمل في المدينة، وكان قد عرض عليه مرارًا أن ينتقل مع أمه وإخوته إلى المدينة ليتعلّم هناك، لكنه كان يرفض بسبب حُبّه لجده، وبسبب تمسك جده بهم.

وفي إحدى الأيام، بينما كان منير عائدًا إلى المنزل، رأى رجلاً مفتولاً يضرب إمرأة كبيرةً في السنِّ ضربًا مبرحًا بسبب خلاف بسيط حول موطن رعي. فتألم منير كثيرًا لذلك المشهد، الذي لم يكن بمقدوره أن يوقفه، وتمنى لو كان جده حيًا ليروي له ما رأى من قسوة الإنسان على أخيه الإنسان.

بات منير ليلته تلك حزينًا متألمًا لما رأى، وزاد من حزنه توارد كثير من الذكريات القاسية التي ترسبت في ذهنه خلال عمره الصغير، فاستلقى نائمًا من شدة حزنه من دون عشاء. وبينما هو نائم شعر كأن جده يمسح على رأسه ويسأله عن سبب الحزن الذي ألم به تلك الليلة. فرح منير كثيرًا برؤية جده ومشاعره تلك، وبكى كثيرًا، وصرخ: "جدي.. جدي، أين أنت يا جـــدي! لماذا تركتني وحيدًا". ردَّ جده: "لا بأس عليك

يا بُني، ما الذي يحزنك؟". تحدث منير بصوت متهدج حول ما رآه ذلك اليوم. ثم كرر على جده تلك الأسئلة التي تؤرقه، وقال يا جدي: "ما ليّ أرى قسوة الإنسان على أخيه الإنسان!؟ ولِمَ كل هذه الشرور في العالم الذي نعيش فيه؟ وكيف يمكن أن يعيش الناس من دون شرور!؟". رد جده بصوت حنون: "عليك ببركة الماء، تلك التي تزورها كل جمعة، اجلس هناك حتى يأتي إليك أول قادم، وأطلب منه إجابة عن أسئلتك".

استرسل منير في حلمه، فوجد نفسه أمام بركة الماء المجاورة للقرية، تمامًا كما طلب منه جده، وانتظر هناك طويلاً ليقابل من يأتي إليه، ليطرح عليه أسئلته، لكن أحدًا لم يظهر حتى أوشكت الشمس على المغيب، فتألم منير كثيرًا، وقال في نفسه: "جدي لم يكذب عليّ من قبل قط، فلماذا اليوم لا يتحقق ما وعدني به؟". فجأة ظهر الضفدع الكبير الذي يراه كل جمعة، قفز من الماء تجاه منير وأصدر أصواتًا متعددة، لكن منير لم يكترث له لحظتها. تكرر المشهد أكثر من مرة، وكأن الضفدع الكبير يحاول أن يلفت انتباه منير، لكن منير ظل غارقًا في تفكيره. ومرَّ الوقت أكثر وأكثر، وبدأت الشمس في المغيب، ومنير لم ييأس، إنما بدأ يشعر بالخوف من قدوم الليل، فهو يريد إجابات عن أسئلته، ومع ذلك يريد أن يعود إلى المنزل قبل أن يحل الظلام. فقال في نفسه: "ماذا سيحدث إن سألت هذا الضفدع، هل سيجيب!؟ فاستجمع منير ذاته، ونادى على الضفدع، قائلاً: "أعذرني أيها الضفدع، إن همومي كبيرة وكثيرة، فهل لك أن تساعدني في إزاحتها عن كاهلي؟" حرك الضفدع رأسه مشيرًا بالموافقة، وقال: "على الرحب والسعة، نحن لسنا غرباء نلتقي هنا كل جمعة، لمَ لا!".

شكره منير، وبدأ يطرح عليه أسئلته. رد الضفدع: "أنا أعتب عليك أنك لم تلتفت إليّ وأنا أمامك منذ فترة غير قصيرة، ومع ذلك سأُرد على أسئلتك قدر معرفتي، ولكن قبل ذلك عليك أن تحضر ليّ بعض الماء لأشرب، حينها سأجيب عن أسئلتك!". فوجئ منير بطلب الضفدع كثيرًا، واستغرب استغرابًا كبيرًا. وقال مخاطبًا الضفدع: "أنت تعيش في الماء، فكيف تطلب مني ماءً للشرب!" رد الضفدع قائلاً: "أنت على حقّ أيها الولد

الطيب. استغرابك هذا يقودنا للإجابة عن الأسئلة التي تحيرك وتولّد الهموم لديك. أنت كذلك لديك عقل أكبر وأفضل من عقلي بكثير، فلِمَ تطلب مني أن أفكر نيابة عنك؟". وأردف: "إيها الولد الطيب، إن الحقيقة والصدق يوجدان داخل عقل كل إنسان، ولكن نتيجة جهله فهو يبحث عنهما في العالم الخارجي من حوله. لذلك أنصحك بالبحث عنهما في داخلك، في عقلك الذي وهبه لك المبدع العظيم".

كان هذا الرد قويًا ومزلزلاً على منير، لكنه مع ذلك شعر بالارتياح؛ لأن هناك من لفت انتباهه إلى كنز ثمين يمتلكه بداخله عليه الاستفادة منه، ثم شكر الضفدع الكبير وعاد إلى منزله.

استيقظ منير من نومه مندهشًا لرد الضفدع المثير، وقال لماذا لم أفكر في تلك الإجابة بنفسي؟. وهنا تذكر ما دار بينه وبين جده ذات يوم عندما قال له جده: "لا تتعجب يا بُني إن قلت لك إن مرد كل تلك المشكلات التي تحدُث بين الناس هو الجهل؛ فالجهل آفة تدمر الناس، إنه تُربة تنبت فيها كل الشرور، وهؤلاء الناس يدفعون ثمن جهلهم، وسيظلون يدفعون ثمن جهلهم حتى يقتلعونه من جذوره. لذلك أريدك أن تصبح متعلمًا، ولا أريدك أن تكون جاهلاً مثلهم".

صمت منير برهة ثم أجاب: "أعدك يا جدي أن أبذل كل ما في وسعي لأتعلم، فأنا أخاف الجهل، بل أكرهه".

قال منير في نفسه: لقد وهب الله الإنسان عقلاً ليفكر به، وزوده بالسمع والبصر، وكل الحواس التي يحتاجها لفَهم العالم من حوله ولحل مشكلاته، لكنه عزّى نفسه بأنه ما زال طفلاً صغيرًا يحتاج أن يتعلّم الكثير لينمي عقله.

عندها قرر البحث عن أفضل السُبل للتعلّم وتنشيط عقله للإجابه عن تلك الأسئلة التي تحيره، وغيرها مما سيواجهه في حياته المستقبلية. وكان قراره أن يقبل عرض والده بالسفر إلى المدينة ليبدأ تعليمه، وينمي تفكيره، فهناك العديد من أبناء قريته الأكبر منه سنًّا، يتعلمون في مدارس حديثة بنتها الدولة، ولن يكون أقل منهم أبدًا.

الخلاصة

- الجهل تربة تنبت فيها كل الشرور.
- تأبى العقول النيرة أن تظل حبيسة الجهل.
- الحقيقة والصدق يوجدان داخل عقل كل إنسان، ولكن نتيجة جهله بذلك فهو يبحث عنهما في العالم الخارجي من حوله. لذلك على الإنسان أن يبحث عنهما في داخله، في عقله الذي حباه به المبدع العظيم.

دخول المدينة

"لكل قادم دهشة".
(مثل عربي)

المسافة بين قرية منير والمدينة قصيرة، لكن نظرًا لوعورة الطريق آنذاك، فقد استغرقت من منير وأسرته يومًا كاملاً. وقد كان عليهم أن يمشوا سيرًا على الأقدام جزءًا من الطريق حتى يصلوا إلى بداية طريق السيارات التي تقل الركاب إلى المدينة، ثم استقلوا سيارة إلى المدينة.

وصل منير إلى المدينة، والتي تُعد إحدى أهم المدن في البلاد، مدينة تزخر بالتراث والتاريخ العربي الأصيل النابض في عروق أهلها وفي جميع أرجائها. وهي تعتبر مركزًا ثقافيًّا وعلميًّا مهمًا في البلاد، حيث يوجد فيها مدارس كثيرة، ومتعلمين كُثر، كما يوجد فيها جوامع وحلقات علم شهيرة ذاع صيتها على مستوى البلاد العربية. وتمتاز جوامعها بمكتباتها ومخطوطاتها القديمة، ووسطية أئمتها، وبمحافظتها على زخارف إسلامية رائعة؛ كما أن منابرها وسقوفها مصنوعة من الخشب المحفور، ونوافذها وقبابها مزخرفة بألوان ومخطوط عليها أيات قرآنية ونقوش قديمة. وتنتشر في المدينة عادات وتقاليد عربية أصيلة، مثل حفلات الأعراس المتوارثة عبر الأجيال ذات الطقوس الفريدة.

ويمتاز مناخ المدينة بالاعتدال طوال العام تقريبًا، وتلطّف من حرارته ما تحمله الرياح الموسيمه من أمطار غزيرة. وقد وصف كاتب أوروبي مناخها بأنه "ربيع دائم".

ويتصف أهل المدينة بالطيبة والكرم والوفاء، وبقبولهم التنوع والتعدد، والترحيب بالوافدين إليها. لذا يكثُر عدد السكان القادمين من محافظات البلاد المختلفة، حيث يشعر الوافد كأنّه في مدينته، فيتشبث بها، وبالبقاء فيها أطول فترة ممكنة.

وتُعد أسواق المدينة القديمة من أشهر أسواق البلاد وأحسنها انتظامًا وأبدعها وصفًا. ويحيط بالمدينة سورٍ عالٍ ذو بوابات كبيرة، ويضم السور بداخله أسواقًا نابضة بالحياة والحركة، وأزقة ملتوية تقود الزائرين إلى كنز حضاري عتيق؛ وبها أسواق تقليدية كثيرة، كسوق العطارين الذي تفوح منه رائحة الأعشاب والتوابل والأعشاب الطبية.

وتشتهر المدينة بالعديد من الصناعات التقليدية والحرف اليدوية المتوارثه عبر الأجيال، مثل صناعه الحُلي، والزينة، والملابس والأسلحة التقليدية، والأواني الفخارية، والصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية، والأدوات والأغراض المصنوعة من أوراق النخيل.

وصل منير عالم المدينة هذه منتقلاً من عالم القرية الهادئ، ووجد المدينه شيئًا مختلفًا، اختلافًا تامًا. فقد أنبهر بشوراعها الفسيحة، وحركة السيارات المتسارعة، كما أدهشته ملابس رجال الشرطة، واستهواه عمل شرطي المرور الذي يقف على منصة في منتصف الساحة بملابسه الرسمية لتنظيم حركة السيارات، وتعجب من طريقة رفع يديه يمينًا ويسارًا، وإطلاق الصفارة لتنظيم حركة السيارات. وسره أن التقى، في إحدى شوارعها، ببعض معارفه الذين يدرسون فيها.

رأى منير أشياءً كثيرة لم يكن معتادًا عليها في القرية من قبل: رأى المساكن الفاخرة، وتعجب من غرفها الكبيرة ذات النوافذ الواسعة التي تضيء أرجاءها، ومرافقها المريحة والنظيفة، وتعجب كيف تُضاء الشوارع والمنازل ليلاً بالكهرباء. كما شدَّ انتباهه تلك المآذن الطويلة التي تزين سماء المدينة تصدح بالأذان. ورأى المدارس ذات المبان الكبيرة التي يتعلَّم فيها الصغار والكبار. كما شاهد مستشفيات المدينة الكبيرة والواسعة التي يتداوى فيها المرضى على نفقة الدولة.

ذات يوم، سار منير برفقة بعض أقاربه في أحد شوارع المدينة من دون أن يدري أين يسير، وظل مشدوهًا طوال الوقت، ولم يفق إلا في المستشفى محاطًا بوالده وبعض الأقارب، فقد صدمته سيارة صدمة خفيفة حين كان منشغلاً بما يراه في ذلك الشارع الفسيح.

وكانت تلك أول مرة يرى فيها المرضى في المستشفيات، ويرى الأطباء الذين لم يسمع بهم من قبل، وأدهشه لباس الأطباء، وشكل الأدوية وفعلها الساحر.

بعدها بأيام، سار منير برفقة والده إلى أقرب محل ليشترى له أغراض المدرسة من كراسات، وأقلام، وممحاة، وغيرها من مستلزمات المدرسة؛ ثم ذهب به والده إلى أقرب مدرسة مجاوره لسكنهم، وسجله في الصف الثالث الابتدائي. وفي اليوم نفسه، بدأ منير دراسته بكل جدٍ واجتهادٍ.

ظل منير منبهرًا لعدة أشهر، فهو لم ير من قبل مبنى مدرسيًّا بهذا الحجم، ولا ذلك العدد الكبير من الطلاب والمعلمين؛ فكُتّاب القرية عبارة عن مساحة صغيرة تحت شجرة كبيرة، يضم عددًا قليلاً من الأطفال لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين؛ أما في المدينة فالمدارس كبيرة، ومبانيها واسعة، وعدد طلابها بالمئات، كما أن أطفال المدرسة يلبسون زيًا مدرسيًّا موحدًا؛ يضفي عليهم لمسة جمالية رائعة. وطابور الصباح أسَرَ لُب منير: وقوف الطلاب في صفوف، والتمارين الرياضية الصباحية، وكلمة الصباح، وتحية العلم، وغيرها من الأنشطة الرياضية والثقافية التي زادته حماسًا وحبًّا للتعلّم.

وفي إحدى الأيام زار منير السوق برفقة والده، فرأى المتاجر وهي تزخر بمختلف أنواع البضائع، ورأى السيارات وهي تحمل تلك البضائع وتتجه بها إلى مناطق البلاد المختلفة. ولفت انتباهه أن بلاده أكبر بكثير من قريته الصغيرة، وهو ما زاد من اهتمامه ليعرف الكثير عن بلده الكبير.

تعجب منير من وجود كل تلك الأشياء في المدينة، بينما لا يوجد في القرية سوى مزارعين، وشيخ القرية، وفقيه الكُتّاب. أما المدينة، فتوجد بها مهن كثيرة من معلمين، وإداريين، وأطباء، ومهندسين، ورجال شرطة، وجيش، وتجار، وعمال فنيين من نجارين، وحدادين، وغيرهم. وتمنى أن يصبح يومًا ما واحدًا من أولئك الذين يخدمون وطنهم، ويعملون على رفعته.

كانت دهشة منير كبيرة بما رآه في المدينة، مع ذلك افتقد أشياءً كثيرة تركها هناك في قريته الصغيرة، مسقط رأسه. افتقد بيوت القرية، والأراضي الزراعية الخضراء، وبرك الماء، وصفاء السماء، ونقاء الليل وسكونه؛ كما افتقد أصوات الحيوانات وتغاريد الطيور، وتحسر على فراق الأهل والأقارب،لكن أمامه غاية كبيرة عليه أن يتغلب على عواطفه لتحقيق تلك الغاية العظيمة.

الخلاصة

- يثير عالم المدينة فضول الناس لمعرفة أشياءً كثيرة.
- توفر المدينة الفرص للناس للتعرف على بعضهم البعض، وعلى مناطق البلاد المختلفة.
- تساعد المدن التاريخية والثقافية على إثراء ثقافة من يعيش فيها.
- توفر المدرسة فرصاً وفيرةً للمتعلمين لتكوين صداقات كثيرة.
- تساعد المدينة الشخص على التأقلم مع عالمها الذي يختلف تماماً عن عالم القرية.

الدراسة في الداخل

"أفضل المنازل والمدارس هي الأماكن السعيدة".
(نيل نودينجز)

تبين لمنير أن الطلاب يأتون، في الغالب، من الأسر الميسورة التي تعيش في المدن وبعض طلاب الريف الذين تنبه ذووهم لأهمية التعليم مبكرًا. ورأى كيف أن الطلاب يقطعون مسافات طويلة للانتقال إلى المدن للحصول على التعليم، بل كان بعضهم يركب الدواب لساعات طويلة للوصول إلى المدارس. وشاهد كيف انتقلت آلاف الأسر وعشرات الآلاف من الطلاب من الأرياف إلى المدن لتلقي العلم الذي حرموا منه خلال السنوات الماضية؛ الذي نتج عنه أن كان الصف الواحد يضم طلابًا من أعمار مختلفة في المستوى الدراسي نفسه.

درس منير المرحلة الابتدائية في إحدى المدارس الرئيسة في المدينة، التي تميزت بصرامة الإدارة، وانضباط المعلمين، والتزام الطلاب. وكان عدد الطلاب في الصّف الواحد يتجاوز المائة، بخاصة في الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى، فقد كان الإقبال على التعليم كبيرًا.

تبين لمنير أنه على الرغم من الإقبال الكبير على التعليم، وإزدحام الطلاب في الصفوف الدراسية، فقد تمكّن التعليم الابتدائي، آنذاك، من بناء الأساس المعرفي للطلاب، حيث حرصت المدارس والمعلمون على أن يتقن الطلاب أساسيات القراءة والكتابة، وإجراء العمليات الحسابية المختلفة، وحِفظ بعض السور القصيرة من القرآن الكريم، وكذلك ترديد أبيات من الشعر وبالذات تلك التي تحثُّ على طلب العلم والتعلّم والاجتهاد في

اكتسابهما. وشجعت المدارس المواهب، من رسم، وموسيقى، ورياضة. وكانت تقام الاحتفالات بالأعياد والمناسبات الوطنية والدينية بانتظام وبأقل التكاليف، وكانت مشاركات الطلاب متميزة.

وشاهد منير كيف أنه على الرغم من أن الطلاب كانوا يقطعون مسافات كبيرة سيرًا على الأقدام من منازلهم للوصول إلى المدارس، فقد كان حماسهم لطلب العلم كبيرًا، وكان دعم أفراد المجتمع لطلاب العلم غير محدود، والطلاب يعاونون بعضهم بعضًا سواء في التعلّم أم في تحمل شظف الحياة. كان الآباء وعامة الناس ينتظرون ذهاب الطلاب إلى المدارس كل صباح، وكذلك عند عودتهم في الظهيرة، فقد كان منظرهم وهم يلبسون الزي المدرسي متحلين بالقميص الأبيض والبنطلون الكاكي يزين شوارع المدينة كل صباح، وكذا عند عودتهم في الظهيرة. وكان يمكن أن تلمس السعادة في وجوه الناس من ذلك المنظر، فالجميع كان يرى أن نشر التعليم هو السبيل لخلاص الناس من مشكلاتهم الاجتماعية، والتغلب على تفشي الفقر والجهل والمرض. وعلى الرغم من استخدام بعض الإداريين والمعلمين العصي، فقد استنتج منير أن الدافع كان حرص التربويين على أن يحقق الطلاب أعلى المستويات. فقد كانت تلك الفترة هي فترة تحرر البلدان العربية من الاستعمار، والتي انتشر في بداياتها التعليم سواء بجهود رسمية أم شعبية.

كان الطلاب يعتمدون بصورة رئيسة على الحفظ، لكن شغفهم بالعلم وجَهَهُم للبحث عن المعلومة وفَهمها أينما وجدت: من كبار الأسرة، من الجيران، من زملائهم في الصف، أو من زملاء سبقوهم في الدراسة. وتعجب منير من أن كان الطلاب الكبار يختبرون أكثر من مستوى دراسي في نفس العام للحاق بزملائهم الذين سبقوهم، فقد كان النظام التربوي مرنًا بما يسمح لمثل تلك الحالات أن تتقدم في تعلّمها.

كان منير يزور قريته مع أفراد أسرته في العطلة الصيفية للقاء الأهل والأقارب، ويقضون الصيف كله هناك يتمتعون بموسم الزراعة والحصاد، ثم يعودون إلى المدينة مع بداية العام الدراسي.

أكمل منير المرحلة الابتدائية بنجاح، وانتقل إلى المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، وانتقل معه كثير من زملائه، لكن البعض الآخر اضطر لتعلّم صنعة لكسب الرزق.

بإكماله المرحلة الابتدائية، شعر منير أنه حقق إنجازًا كبيرًا، بخاصة أن امتحان نهاية تلك المرحلة كان يتمّ مركزيًّا من وزارة التربية والتعليم، وتمنح الوزارة بموجبه شهادة إتمام المرحلة الابتدائية.

انتقل منير إلى المدرسة الإعدادية (المتوسطة) التي كانت تقع على الجانب الآخر من المدينة. وكان عدد الطلاب أقل مقارنة بالمدرسة الابتدائية. وكان كثير من المعلمين في هذه المرحلة من دول شقيقة. لفت انتباه منير اللهجات العربية المختلفة، التي تختلف عن لجهته المحلية. وعرف من المعلمين العرب معلومات عن دولهم، وكيف يعيش الناس هناك، وهو ما أثار فضوله لمعرفة المزيد عن بقية أقطار الوطن العربي الكبير.

تزامنت تلك المرحلة مع ظهور العمل التعاوني في البلاد، وبدء انتخاب التعاونيات. أثارت تلك المشاهد فضول منير، وكان عليه أن يسأل ويتعلّم حول أهمية العمل التعاوني، وكيفية إسهام الجمعيات التعاونية في نهضة المدينة والريف.

كانت المدرسة الإعدادية (المتوسطة) أكثر جدية وكانت الدراسة فيها أكثر صعوبة من المرحلة الابتدائية، ولم يكن بوسع الكبار المحيطين بالطلاب مساعدتهم في استذكار دروسهم، فقد كان معظم يشكلون الرعيل الأول من التعليم النظامي في البلاد. لذلك كان على منير وزملائه أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى التعاون فيما بينهم.

بدأت المدارس الإعدادية (المتوسطة) في تلك الفترة بتدريس مادة اللغة الإنجليزية، وعلى الرغم من أن منير كان يسمع بعض الكبار ينطقون بعض مفردات اللغة

الإنجليزية، بخاصة العاملين في مؤسسات دولية مثل السفارات والشركات، لكنه لم يكن قد تلقى أي تعليم نظامي في تعلّم تلك المادة. ما أدهشه في هذا الأمر أنه ليس هناك دول تتحدث لهجات متنوعة من لهجات اللغة العربية فقط، بل توجد دول تتحدث لغات أخرى غير العربية، مما أثار فضوله أكثر لمعرفة الكثير عن العالم المحيط به.

أكمل منير المرحلة الإعدادية (المتوسطة) بنجاح، وبدأ يتهيأ للالتحاق بالمدرسة الثانوية، لكن ما أحزنه أن كثيرًا من زملائه ترك المدرسة وانتقل إلى ميدان العمل مما أشعره بالحسرة على زملائه.

درس منير المرحلة الثانوية في إحدى أشهر مدرستين موجودتين في المدينة، ويديرها مدير من إحدى الدول الشقيقة. وكان ذلك المدير رمزًا للتربوي المتفاني في عمله، المخلص في أداء رسالته التربوية. أدار المدرسة بانضباط شديد مما أكسبه سمعة حسنة في المدينة. لذا فإن معظم الطلاب كانوا يحرصون على أن يسجلوا في تلك المدرسة.

كان مَن يواصلون دراسة المرحلة الثانوية، خلال تلك الفترة، هم إما من فئات اجتماعية ميسورة ماديًّا، أو ممن لديهم إصرار استثنائي على مواصلة التعلّم، وهاتان الفئتان كان يندر أن يترك أبناؤهما الدراسة قبل إكمال المرحلة الثانوية.

تعرف منير خلال دراسته على كثير من زملائه، الذين كانوا مثالاً لطلاب العلم المجدين والمجتهدين. وكان من أقرب أصدقائه إليه في المرحلة الثانوية زميله "عادل"، الذي يمتاز بأنه شاب طيب القلب، ومُحب لوطنه. وكان عادل –أيضًا– طالبًا متميزًا ومجدًا في دراسته، يحصد المراتب العليا بين زملائه.

تميزت المرحلة الثانوية، آنذاك، بالمنافسة الشديدة بين الطلاب، فالكثير كان يحلم بدراسة التخصص الذي يريده في الجامعة، لذلك كان لا بد على مَن يريد أن يحصل على التخصص الذي يفضله في الجامعة أن يحقق في الثانوية العامة معدلاً يؤهله لذلك.

شهدت هذه الفترة ظهور التلفزيون وانتشار دور السينما، ففتحت وسائل الإعلام هذه أمام منير وأبناء جيله آفاقًا جديدة للتعرف على أفكار جديدة وثقافات متنوعة من دول عربية وأجنبية.

من حُسن طالع ذلك الجيل أنه لم يحصر نفسه في الكتب المدرسية، بل امتدت قراءاته لتشمل مكونات المعرفة المختلفة. فقد انتشرت، خلال تلك الفترة، المكتبات الخاصة التي ضمت كتبًا ثقافية من مختلف البلدان وشتى الأفكار. كما انتشرت المراكز الثقافية للبلدان المؤثرة آنذاك. مكنت هذه الفرصة شباب تلك الفترة من الإطلاع على مختلف الأفكار سواء الدينية، أم الوطنية، أم القومية، أم العالمية. وهذا ما ساعد على الرقي بثقافة جيل تلك الفترة.

أكمل منير دراسته الثانوية بتفوق، وكان عليه أن يؤدي الخدمة الإلزامية في التدريس قبل الالتحاق بالجامعة.

خدمَ منير في سلك التدريس في إحدى المحافظات النائية. وعلى الرغم من قساوة الحياة في تلك المنطقة، عمل كل ما في وسعه لنقل ما تعلّمه من معارف ومهارات إلى أبناء وطنه في تلك المنطقة المحرومة. ووجد منير الطلاب من أبناء تلك المنطقة لا يقلون حماسًا ورغبة في التعلّم عن أقرانهم في البلاد على الرغم من قساوة الحياة. وهذا ما شجعه على أن يعطي أكثر، ثم بدأ في التفكير في أن يؤهل نفسه في الجامعة لكي يسهم في تطوير بلده بصورة أكبر من خلال الالتحاق بمهنة التعليم.

وبعدها انتقل منير إلى العاصمة لاستكمال دراسته الجامعية الأولى. وهناك كانت الحياة مختلفة تمامًا عمّا اعتاد عليه في التعليم العام. فمثلاً، كانت تلك أول مرة يشعر فيها بالاستقلال الذاتي، وأول مرة يختار فيها المواد التي يدرسها، وأول مرة يتعامل فيها مع المختبرات العلمية. كما كانت هناك فرص ثمينة للمشاركة في الأنشطة الرياضية، وفي أنشطة الجمعيات العلمية. لقد شعرَ منير باستقلالية أكبر، لأنه أصبح

عليه أن يدير أموره بنفسه، وألا يعتمد على الكبار، كما كان في مراحل التعليم العام.

من حُسن طالع منير أن زامله في دراسته الجامعية صديقه عادل. فلقد كانا عونًا لبعضهما البعض خلال الدراسة الجامعية، تماماً كما كانا في المرحلة الثانوية. كما تعرفا على طلاب جدد في الجامعة، كان أبرزهم: قائد، وسند؛ واللذان كانا يُعدان من أفضل وأنبل الطلاب الجامعيين. وأصبحت المجموعة أكبر بانضمام قائد وسند لمنير وعادل. ولأن الحياة الجامعية مختلطة، فقد تعرفت المجموعة على زميلات -أيضًا- منهن: مُهجة، وإلهام؛ وهما طالبتان جامعيتان مجتهدتان، وتتحليان بأخلاق عالية، تمثّلان قدوة للطالبات الجامعيات تفخر بهما البلد.

لقد كان الطلاب شغوفين بالتعلّم، ومثابرين على دروسهم، مجدين ومجتهدين طوال الوقت، ويعدون من نخبة الطلاب المتفوقين. وبذلك استفادوا من الفرص الثمينة التي توفرها الدراسة الجامعية، واكتسبوا مهارات عقلية جديدة ومهمة. فمثلاً مكنتهم الدروس العملية في المختبر من تعلّم الصبر وعدم الاستعجال في رصد النتائج، وكذلك نموّ القدرة على التساؤل حول نتائج التجارب والبحث للوصول إلى إجابات منطقية.

ولأن الحياة الجامعية بطبيعتها اجتماعية، فقد تعلموا العمل في الجماعي سواء من خلال الجمعيات العلمية أم من خلال المذاكرات الجماعية التي تطلبتها طبيعة الدراسة الجامعية عند القيام بالتكليفات والواجبات المنزلية؛ مما اقتضى جلسات نقاش طويلة طبق خلالها الطلاب كثيرًا التفكير الجماعي الذي يتطلب أن يتعلّم أفراد المجموعة من أفكار بعضهم.

كانت الحياة الجامعية مختلفة، حيث كان الطلاب يزخرون بالحماس والجد والاجتهاد، وكانوا ينخرطون في الأنشطة التعليمية بعزيمة كبيرة وروح معنوية عالية، مما ولّد لديهم السعادة بتقدمهم المعرفي.

الخلاصة

- انتقل آلاف الأسر وعشرات الآلاف من الطلاب إلى المُدن للتعلم.
- تميزت المدارس بالصرامة في الإدارة، وانضباط المعلمين، والتزام الطلاب.
- نجحت المدارس في إكساب المتعلمين أساسيات المعرفة من قراءة، وكتابة، وأصول الحساب، وحفظ سور من القرآن الكريم، وكذلك ترديد أبيات من الشعر العربي الفصيح.
- كان حماس الطلاب كبيرًا للتعلّم.
- تميزت الدراسة بالتعاون، والتنافس الشريف.
- شكّل التلفزيون ووسائل الإعلام المختلفة أدوات تثقيف مهمة للطلاب والمجتمع.
- اكتسب الطلاب خلال الدراسة الجامعية مهارات الاستقلال، والاعتماد على الذات، والعمل الجماعي.

التعليم في الماضي

"الماضي هو الذي يجب أن يستثيره المستقبل".
(مثل فرنسي)

أكمل منير وزملاؤه الخمسة (عادل، وقائد، وإلهام، ومُهجة، وسند) دراستهم الجامعية بتفوق مما أهَلَ كلاً منهم للحصول على وظيفة معيد في الجامعة. ووفرت لهم هذه الوظيفة فرصة لتعلّم لغة ثانية ليتمكنوا من السفر والابتعاث للدراسات العليا في الخارج، وتأهيل أنفسهم في العلوم الحديثة في بلدان متقدمة.

توزع الزملاء الخمسة على معاهد لغات متخصصة، وبدأوا في دراسة اللغات بعزيمة عالية، وثابروا في دراستهم بهدف الحصول على قبول في جامعات مرموقة. وفي الوقت نفسه، كانوا يشاركون أساتذتهم في تدريس بعض المواد للطلاب الجامعيين، وبخاصة تلك المواد التي تتضمن تدريبات عملية.

قبل سفر أفراد المجموعة للدراسة في الخارج، نظموا ندوة فيما بينهم لمناقشة طبيعة التعليم خلال تلك الفترة، اقترح فكرتها منير، بهدف توثيق ذكرياتهم عن التعليم: من بداية التعليم الابتدائي في ستينيات القرن الماضي حتى إكمال التعليم الجامعي في ثمانينيات القرن نفسه. باركت المجموعة الفكرة، واختارت "منير" للتنسيق فيما بينهم وإدارة الحوار.

استطاع منير أن ينسق بين زملائه، واختار المكان والزمان المناسبين، ثم وجه الدعوة لزملائه لحضور الندوة.

التقى الجميع في إحدى غرف الاجتماعات في الكلية، وبدأ منير الحديث بشكر زملائه على موافقتهم على الفكرة وتحمسهم لها. ثم تحدث قائلاً: "باستثناء مُهجة وإلهام،

فنحن من الرعيل الأول للمتعلمين في مجتمعنا، فقد مررنا بتجربة فريدة في التعليم. ونحن جميعًا نتحمل مسئولية توثيق الجوانب المهمة في تاريخ هذه الفترة من تاريخ التعليم في بلادنا. واسمحوا ليّ أن أقول لكم، لقد تميز التعليم خلال فترة دراستنا بصفات مهمة، شملت تسلح الطلاب بإرادة صلبة، وتمتع المعلمون والإداريون بمهنية تربوية عالية. أما الأُسر، فقد تميزت بصرامة شديدة، وكذلك الحكومة والمجتمع، تميزا بدعم غير محدود للتعليم والمتعلمين". ثم طلب منير من زملائه توزيع جوانب الحديث فيما بينهم.

شكرت المجموعة منير، وتوزعوا موضوعات الحديث فيما بينهم على النحو الآتي:

منير: الحكومة والمجتمع.

قائد: القيادة التعليمية.

إلهام: المعلمون.

سند: المناهج الدراسية.

مُهجة: الطلاب.

عادل: الامتحانات.

بعد ذلك، انتقل الحديث إلى قائد الذي استعراض صفات المدرسة في الماضي القريب، فقال: "كانت الإمكانات شحيحة آنذاك، لكن الدولة بذلت جهودًا كبيرة لتوفير المباني المناسبة لطلاب المدارس؛ كما أسهم عدد من الدول الشقيقة في بناء مدارس جديدة. وكانت تُمثّل المدارس، بالنسبة لأغلب الطلاب، المكان المفضل للتعلّم سواء ما تعلق الأمر منه بالصفوف الدراسية أم الكراسي أم السبورات أم الملاعب وبقية المرافق المدرسية. وكانت الإدارة المدرسية تتمتع بانضباط إداري عالٍ، وحرص شديد على تعلّم الطلاب وتفوقهم. فمثلاً؛ كانت هناك متابعة دقيقة لتوفير احتياجات المدرسة من مبانٍ إضافية، ومقاعد، وتجهيزات، وكتب دراسية؛ كما كان الإداريون والمعلمون يتابعون تأخر الطلاب عن طابور الصباح ومدى إنجاز الواجبات المنزلية؛ وكانت إدارة المدرسة تتواصل مع الأهالي بشكل

دوري لضمان تعلم الطلاب. فلقد كانت المدارس بحقّ نموذجًا يفخر به كل طالب علم وتربوي".

بعده تحدث سند عن المنهج المدرسي، فقال: "كان محتوى المناهج الدراسية مناسبًا ويتلاءم مع المستوى العقلي للطلاب، والكتب المدرسية كانت نصوصها مبسطة. وعلى الرغم من أن بعض الكتب المدرسية كانت مستعارة من إحدى الدول الشقيقة، إلا أن المعلمين كانوا يبذلون كل جهودهم المخلصة لموائمتها مع البيئة المحلية. وكان يتوافر لكل طالب الكتب التي يحتاجها. وكان الطلاب، بدورهم، يحافظون على الكتب المدرسية يغلفونها ويستخدمونها بحرص. وفي نهاية العام، يعيدونها إلى المدرسة لتُسلم لزملائهم الذين يلونهم العام التالي".

ثم تحدثت مُهجة عن الطلاب، فقالت: "كان الطلاب، في الماضي، يتميزون بفضول شديد جعلهم شغوفين بالتعلّم؛ فكانوا يبدؤون يومهم – طلابًا وطالبات – بطابور الصباح، حيث كانوا يتسابقون على الوقوف في صفوفه المنتظمة، وكانوا يؤدون تمارين الصباح بهمة عالية ونشاط كبير، ويرددون تحية العَلَم بكل فخر واعتزاز، ويدخلون الفصول منتظمين، ويستمعون ويشاركون في دروسهم بفاعلية".

وأضافت: "كان يسود جو من الإخوة بين الطلاب، ولا تظهر بينهم المنازعات؛ كما كانوا ذوي أدب جم، وكانوا مطيعين للإدارة المدرسية ومعلميهم ومعلماتهم. لم يكن يشغلهم شيء سوى أن ينهلوا من العلم ما أمكن، بنهم وشغف منقطعي النظير. فلقد تميز الطلاب بالمثابرة على التعلّم بصورة مدهشة حقًّا. فكانوا يتحينون الفرص ليتناقشوا فيما بينهم حول موضوعات التعلّم بحماس شديد لا يخلو من الاعتزاز بالذات والاندماج في المجموعة. وكانوا يتعاونون لإنجاز التكليفات المدرسية سواء داخل المدرسة أم خارجها؛ كما كانوا يتقاسمون الوجبات أو الحلويات، على قلتها، فيما بينهم. وكان المعلمون والمعلمات يهدون المبرزين مكافآت رمزية تشجيعًا لهم، وتحبيبًا في الدراسة والمدرسة".

استنتاج (١)

كان الطلاب يُقبلون على التعلّم
بنهم وشغف منقطعي النظير.
(حُب الاستطلاع)

ثم أخذت إلهام دورها في الحديث عن المعلم، فقالت: "كان المعلمون، في جميع مراحل التعليم، يؤدون واجباتهم بتفانٍ وإخلاص استثنائيين. لقد كانوا يؤمنون بأهمية الرسالة التي يؤدونها نحو طلابهم، وتجاه مجتمعهم. فقد كانوا جادين في عملهم، ينظمون الطلاب في الساحة أثناء طابور الصباح، ويرشدونهم عند التوجه للصفوف الدراسية، ثم يدخلون الصفوف ويقدمون الدروس بكل حماس وإخلاص، كما كانوا يتابعون تعلّم الطلاب بانتظام. ولم يكتف المعلمون بإلقاء الدروس وشرحها ثم يذهبون في حال سبيلهم، بل كانوا يولون اهتمامًا خاصًا بالطلاب المتميزين ويحثّونهم على التفوق، ويأخذون بأيدي الطلاب ذوي المستوى الضعيف للتغلب على الصعوبات التي تواجههم. وكانوا يحثونهم على العودة بعد الدوام لشرح أي موضوعات غامضة من دون مقابل مادي. وكانوا يتابعون سلوك الطلاب داخل المدرسة وخارجها. فقد كان المعلمون يحرصون على سمعتهم ويحافظون على كرامتهم الشخصية والمهنية، فلم يكن جُل همهم وغايتهم جمع المال، بل كانوا يبذلون جهدهم لرفع شأن مهنتهم والرقي بالأجيال، حرصًا منهم على صنع مستقبل مشرق لجميع الطلاب. كما لم يكونوا يترددون في مدِّ يد العون لمَن يحتاج المساعدة. لقد كان المعلمون يمثلون القدوة في المجتمع، وكانت مهنة التدريس تُعدُّ رسالة أكثر مما هي مهنة".

وتابعت إلهام حديثها قائلة: "من شدة حرص المعلمين، فقد كانوا يطلبون من الطلاب ترديد جدول الضرب خلال الحصة بطرح أسئلة على مختلف الطلاب. وقد يضطر معلم لمعاقبة أحد الطلاب إن هو لم يساير بقية زملائه، بجعله يقف مكانه ويستمع لزملائه

وهم يجيبون عن الأسئلة أو يقرأون النصوص اللغوية. نعم، كانت هناك بعض التجاوزات باستعمال العصى أحيانًا، لكنها كانت بروح وقلب الأب الحريص على تفوق أبنائه. كما كان المعلمون يطلبون من الطلاب استظهار بعض النصوص الأدبية لإغناء قدراتهم اللغوية والبلاغية. أكاد أجزم أنني لم أر معلمًا بدت عليه علامات الملل أو التعب خلال الحصة، بل كان جميعهم يقودون الركب بنزاهة وإخلاص منقطعي النظير".

وعن الحياة الجامعية، قالت إلهام: "أود أن ألفت انتباهكم -أيضًا- إلى المرحلة الجامعية التي شكلت نقلة نوعية في حياتنا؛ فهي، كما تعلمون، تأتي في مرحلة الشباب المليئة بالحيوية والنشاط. لقد وفرت لنا الحياة الجامعية جواً أكاديميًّا وثقافيًّا متميزاً، تمثّل في الفعاليات والأنشطة الأكاديمية والترفيهية والاجتماعية، والتي هيأت جوًّا إيجابيًّا صقل شخصياتنا في المجالات كافة. فقد تركت الحياة الجامعية بصمات مهمة في حياتنا، فهي جمعت شمْل الكثير منا من مختلف أنحاء البلاد، مما أسهم في إزالة الحواجز بيننا وعزز الروابط بين الطلاب، وساعد على غرس الروح الوطنية بين أبناء البلد الواحد. كما ساعدت في تعلّم بعضنا من بعض سواء عند المذاكرة الجماعية أم عند المشاركة في الجمعيات العلمية، أم عند الانخراط في الأنشطة الرياضية والفنية".

استنتاج (٢)

امتاز طلاب الأمس بالمثابرة على التعلّم، والتنقل من معلم لآخر للاستزادة من المعرفة.

(المثابرة)

وهنا أضاف منير إلى ما قالته إلهام: "نعم لقد وفرت لنا الجامعة مساحة مناسبة للنقاش البناء، ومواقف للتدرب على التفكير العلمي، ورفض الخرافة والثأر والتطرف، والانشغال بقضايا المجتمع المهمة، والمشاركة في جهود التنمية. لقد اكتسبنا الكثير من المهارات المفيدة خلال المرحلة الجامعية، منها: مهارات الاستقلال المالي، ومهارات إدارة

الوقت، والتعلّم من بعضنا البعض خلال المناقشات والعمل الجماعي في الأنشطة والجمعيات العلمية. كما أكسبتنا الرحلات والأنشطة الثقافية تعلّم الصبر واحترام الرأي والرأي الآخر".



استنتاج (٣)

يتعلم أفراد المجموعات بعضهم من بعض عند المذاكرة الجماعية والمشاركة في الأنشطة الرياضية والفنية والجمعيات العلمية.

(التفكير الجماعي)

أما عادل، فقد تناول في حديثه الامتحانات، قائلاً: "كانت الامتحانات تعبر عن مستوى الطلاب بصدق. إذ كان يُكتسب النجاح عن جدارة، فلا يحصل الطلاب إلا على الدرجات التي يستحقونها. فلم يكن الطلاب بحاجة للغش أصلاً؛ لأنهم كانوا مجدين، مجتهدين، ومثابرين، يبحثون عن المعرفة أينما وجدت: في الصف، في المدرسة، في المنزل، أو حتى لدى الجيران".

وأضاف: "كان قليل من الطلاب يعيدون السنة الدراسية من دون ندم، فلم تكن الإعادة عيبًا، بل كانت حافزًا للاعتماد على النفس وبذل مزيد من الجهد. ومن أولئك الطلاب من تابع دراسته العليا بتفوق، ومنهم من التحق بسوق العمل بعد أن تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب والتشبث بالقيم التي بها تبنى الأوطان".



استنتاج (٤)

أكسبت الدراسة الجامعية الطلاب قدرات عقلية مهمة، فمن الدروس العملية تعلّموا الصبر عند رصد النتائج، وكذلك التساؤل للوصول إلى إجابات منطقية.

(التحكم في التهور)

كان منير آخر المتحدثين، غطى حديثه جهود الحكومة والمجتمع في دعم التعليم، فقال: "شجعت الحكومة التعليم تشجيعًا كبيرًا، وكانت تضعه في أولى أولوياتها، حيث كان القادة يعتقدون أنه من دون التعليم لن ترتقي البلاد. لذلك حولت كثيرًا من المباني الكبيرة التي كانت تستخدم في أغراض مختلفة إلى مدارس، وقامت ببناء كثير من المدارس في مناطق البلاد المختلفة، ثم شيدت مؤسسات التعليم العالي من كليات وجامعات. ووفرت المعلمين سواء من داخل البلاد أم من خارجها، حيث استقدمت الكثير من المعلمين من دول شقيقة عدة، للإسهام في النهضة التعليمية في البلاد. وكان هؤلاء المعلمون يمثلون القدوة في العمل والأخلاق العالية، وحبّ العلم وتشجيع الطلاب على أن ينهلوا من العلم ما استطاعوا. كما كان أبناء البلاد لا يقلّون عنهم كفاءة وإخلاصًا".

وتطرق منير لدور المجتمع في دعم التعليم قائلاً: "كان المجتمع مشجعًا للتعليم وداعمًا له، حيث كان يقابَل طلاب العلم باحترام وتقدير شديدين، بل كان بعض الناس يقف مرحبًا بالطلاب سواء عند ذهابهم للمدارس أم عند عودتهم منها. وكان بعض الأفراد الميسورين يقدم الدعم المالي لطلاب العلم المحتاجين في مناطق البلاد المختلفة".

وفي نهاية الندوة، لخص منير الأفكار الرئيسة للقاء في النقاط الآتية:

١ - قدمت الدولة والمجتمع دعمًا كبيرًا للتعليم.

٢ - كانت المناهج الدراسية ملائمة لمستوى المتعلمين.

٣ - كان المعلمون والتربويون وأساتذة الجامعات مخلصون في عملهم.

٤ - كان يسود جو من التعاون والزمالة والإخوة بين الطلاب.

٥ - تميز الطلاب بِحُب الاستطلاع، والمثابرة، والعمل الجماعي.

٦ - شكلت الحياة الجامعية نقلة نوعية في مستوى تفكير الطلاب.

٧ - ساعدت النقاشات والعمل المخبري في الجامعة على بناء شخصية الطلاب، وبالذات ما يتصل بالتأني وعدم التسرع في اتخاذ القرار.

٨ - كانت نتائج الامتحانات تعبر بصدق عن مستوى الطلاب، ولم يكن الطلاب يعتمدون على الغش.

ولّدت هذه النقاشات لدى أفراد المجموعة اهتمامًا خاصًّا بقضايا التربية والتعليم؛ لذلك قرروا أن يستكملوا دراساتهم العليا في هذا المجال، وفي أفضل الجامعات العالمية حتى يستطيعوا أن يتأهلوا التأهيل المناسب ويعودوا لخدمة وطنهم باقتدار.

الدراسة في الخارج

"تشكل الرحلات أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان".
(مقولة فرنسي)

واصل منير وزملاؤه الخمسة دراسة اللغات الأجنبية ليتأهلوا للحصول على مقاعد دراسية في جامعات مرموقة في الخارج. فقد شمّر الجميع عن سواعدهم، وفتحوا أذهانهم لدراسة اللغات الأجنبية لفترة تراوحت ما بين سنة وسنة ونصف. وخلال فترة دراسة اللغة تعرّف كل من عادل ومُهجة وقائد وإلهام على بعض أكثر، وقرروا الزواج، وتزوجوا قبل السفر.

بعد أن استكملوا دراسة اللغات، حصل كل منهم على قبول من إحدى الجامعات العالمية. وحرص كل زوجين: عادل وزوجته مُهجة، وقائد وزوجته إلهام على الحصول على قبول من جامعات في الدولة نفسها، وتحقق لهم ذلك. وبعد أن أكملوا إجراءات السفر، توجه كل منهم إلى البلد التي حصل منها على قبول للدراسة.

بالنسبة لمنير، كما هو الحال بالنسبة لبقية زملائه، كانت تلك هي المرة الأولى التي يسافر فيها خارج بلده، كان ذلك في ثمانينيات القرن الماضي. وقد كانت الرحلة تمرُّ عبر عدة مطارات، واستغرقت اثنتين وثلاثين ساعة، منها ساعات عديدة في الجو. وصادف أن رافق منير في هذه الرحلة أحد العمال المغتربين منذ سنوات طويلة في بلاد الغرب، كان عائداً إلى عمله بصحبة أحد أبنائه. وعلى الرغم من الرفقة الطيبة، إلا أن الرحلة كانت متعبة؛ نظراً لطول مدتها، حيث مرّت الطائرة فوق البحر لساعات طويلة مما شكّل مصدر قلق لمنير. كما مثّل الطعام مشكلة أخرى، فلم يكن ممكناً حينها أن يطلب الشخص طعاماً يشبه ما تعود عليه في بلده.

تنقل منير من مطار لآخر، عبر بلدان عديدة، بدءًا من بلده إلى بلد في أطراف أوروبا، ومنها إلى إحدى البلدان في وسط أوروبا، ومنها إلى البلد التي سيدرس فيها. وأخيرًا، بقي عليه الانتقال من المطار الرئيس في تلك البلد إلى مطار المدينة التي سيدرس فيها.

ومن النوادر التي صادفها منير في سفره عند وصوله المطار الرئيس في البلد المعني، أن طلب منه مرافقه مساعدته في الترجمة لموظف الجوازات ليشرح له طلبه السماح بدخول ابنه تلك البلاد بناءً على الأوراق المرفقة. تفاجأ منير بالطلب من مغترب يعيش في الغرب منذ سنوات طويلة، ومع ذلك بذل جهده في الترجمة لموظف الجوازات المتعجرف.

اكتشف منير أن العامل كان يعمل ويسكن في حي يقطنه أغلبية من بلده يقع في إحدى المدن الصغيرة المشهورة بصناعة السيارات، وباستثناء بعض المفردات اليومية البسيطة، لم يكن ذلك الشخص مضطرًا لتعلّم اللغة الإنجليزية؛ لكن يظل الأمل في تعلّم ابنه تلك اللغة.

بعد أن استكملوا إجراءات الجوازات، كان على منير أن يبحث عن بوابة الطائرة التي ستقله إلى المدينة التي سيدرس فيها. وكانت أكبر معاناته هي طول فترة الانتظار في المطار، حيث تأخرت الرحلة ثلاث مرات نظرًا لهطول الثلوج على المطار مما تسبب في توقف حركة الطيران لحوالي اثنتي عشرة ساعة.

لم يرتب منير نفسه جيدًا لسفر طويل كهذا، لا بملابس احتياطية في حقيبة يد صغيرة، ولا في اصطحاب مأكولات مجففة لحالات الطوارئ مثل هذه، بخاصة أنه لم يكن متعودًا على الطعام الغربي. وزاد أن طول مسافات الطيران تلك جعلته يرى أن بلاد الغرب بعيدة تمامًا، كما لو أنها تقع في آخر الدنيا، لكن لم يكن أمامه سوى التسلح بالصبر.

بعد طول انتظار في المطار الرئيس للبلد التي سيدرس فيها، أعلنت موظفة المطار للمسافرين عن بدء دخول الطائرة التي ستقلهم و"منير" إلى المدينة الجامعية التي سيستقر فيها. حمل منير نفسه، وتوجه إلى الطائرة التي استغرقت رحلتها عدة ساعات.

عندما وصلت الطائرة إلى المدينة، وجد منير مدير معهد اللغة الإنجليزية شخصيًّا في استقباله، والذي فاجأه بمناداته باسمه – فلم يكن منير يتوقع أن يستقبله أحد، بل كان يفكّر مهمومًا كيف سيصل إلى المدينة الجامعية. تقدم هذا الشخص نحو منير وعرّف بنفسه: "السيد/ جيمس، مدير معهد اللغات في الجامعة". شكره منير، ثم اصطحبه مضيفه إلى فندق قريب من الجامعة. وفي اليوم التالي، أرسل مدير المعهد حافلة لاصطحابه إلى المعهد. وفي المعهد، أكمل إجراءات التسجيل، واستلم البطاقة الجامعية، وبعض المطويات عن المعهد والجامعة والمدينة التي سيدرس فيها.

التحق منير بصفوف المعهد الذي يغلب عليه طلاب من دول القارة السمراء وأمريكا اللاتينية، وبدأ دروسه في معهد اللغات، في مقررات متقدمة لاستكمال تأهله للالتحاق بالجامعة. واستطاع أن يحقق متطلبات الجامعة من اللغة مع نهاية الشهر الأول من التحاقه بالمعهد. لذلك كان عليه الانتظار عدة أشهر حتى يبدأ الفصل الدراسي في الجامعة. فاستثمر منير وقته في الاستعداد لامتحان تحديد المستوى الذي يتطلبه القسم العلمي الذي سيلتحق به، حيث كانت الجامعة تجري امتحانًا لطلاب الدراسات العليا لتحديد مدى تأهلهم للدراسات العليا قبل قبولهم النهائي في الجامعة.

لقد كانت الصورة التي رسمها منير في ذهنه عن الغرب هي تلك الصورة التي قرأها في كتب اللغة الإنجليزية عندما كان يدرس اللغة في بلده استعدادًا للسفر. ولقد شكلت تلك الكتب انطباعًا خاصًا لديه، مفاده أن الغرب بلاد واسع الثراء، ونتيجة لذلك فإنه يمتلك قوة هائلة. لكنه وجد أنه على الرغم من أن حكومات تلك البلدان غنية، إلا أن الكثير من أبناء ذلك البلد يعمل في أكثر من عمل حتى يستطيعون تسديد فواتيرهم المستحقة في نهاية الشهر.

لاحظ منير، خلال الأشهر الأولى، أن معظم السكان، كما هي عادة الغربيين، يهرولون خلف شيء ما، وكأنهم يحاولون الإمساك بفرصة يخافون أن تفوتهم! لذلك كان عليه أن يهرول مثلهم. فقد التحق بصفوف الجامعة متنقلاً من محاضرة لأخرى،

ومن مختبر لآخر. وكان ينتهز عطلة نهاية الأسبوع للتسوق، والتعرف على معالم المدينة. كما كانت تلك الدولة المضيفة ترتب، في نهاية السنة الميلادية، رحلات للطلاب الأجانب لتعرفهم بمناطقها المختلفة. استفاد منير من تلك الزيارات لإثراء ثقافته حول المجتمع الغربي.

من أبرز الأمور التي لفتت انتباهه، بل وأدهشته، شبكة الطرق والجسور وسكك القطارات، سواءٌ داخل المدن أم بين المناطق المختلفة. كذلك شبكة الهواتف[1] والكهرباء المنتشرة عبر البلاد بأكملها؛ واستهواه كذلك التخطيط العمراني الفريد للمدن.

وجد منير أن تلك البلاد لا تنشئ الجامعات عبثًا أو كيفما أتفق، وإنما تُنشأ الجامعات لخدمة أغراض تنموية. فالمناطق الزراعية، تؤسس فيها جامعات تركز على تخصصات الزراعة، والمناطق النفطية تؤسس فيها جامعات تركز على صناعة النفط، والمناطق التجارية تؤسس فيها جامعات تركز على إدارة المال والأعمال، وهكذا.

كما أن البنية التحتية للجامعات تكاد تكون مثالية، فمثلاً؛ لاحظ منير أن مبنى القسم الذي درس به مكون من برج يضم (١٢) طابقًا ودورين تحت الأرض، فضلاً ملحقين الأول لإدارة القسم، والثاني للمختبرات الحساسة. ويخصص لكل عضو هيئة تدريس مكتب ومختبر أو أكثر، يحصل على تمويلات تشغيلها من عائدات الأبحاث التي ينفذها للشركات والجهات الحكومية والخاصة المهتمة بأبحاثه. أما طلاب الدراسات العليا، فكل واحد منهم يحصل على مكتب خاص به، ومختبر أو جزء من مختبر لإجراء أبحاثه. ويسمح بالدوام في المختبرات حتى الساعة الخامسة عصرًا، حيث تحظُر القوانين الرسمية البقاء في المختبر بعد انتهاء الدوام في الخامسة عصرًا؛ لكن الطلاب، وبالذات الأجانب، كانوا يستمرون في المختبرات حتى ساعات الفجر الأولى. فكل منهم يحصل على مفتاح

(١) لم تكن الهواتف النقالة حينها قد ظهرت بعد.

للمختبر الذي يبحث فيه، وآخر لمكتبة القسم للدخول بعد الدوام الرسمي في أي وقت على مدار الساعة.

ومن مميزات الجامعات الغربية أنها تمنح طلابها ثقة كبيرة، سواء فيما يتصل بالمختبرات، أم المكتبات، أم التدريس؛ حيث يشارك طلاب الدراسات العليا أساتذتهم في تدريس المقررات الأولية لطلاب السنة الجامعية الأولى. ولقد كان معظم طلاب الدراسات العليا في التخصصات العلمية والهندسية هم من الطلاب الأجانب، وبصفة خاصة من الهند والصين وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ووجد منير أن الأساتذة يتحلون بالإخلاص في العمل، ويتمتعون بمصداقية عالية عند أداء مهامهم سواء فيما يتصل بمواعيد الدروس التي يحرصون على ألا يتأخروا عنها، أم الالتزام بالوقت المخصص للدروس الذي يستغلونه استغلالًا كاملًا (فالدرس ساعة يعطى ساعة كاملة من دون نقص). ووجدهم يشجعون الطلاب على البحث والتنقيب والاستقصاء في دروسهم، ويكلفونهم بأعمال جماعية مما يساعد على تبادل الأفكار بين الدارسين، ويفتح أمامهم آفاق تعلّم جديدة. كما يضعون الآليات المناسبة للتأكد من مصداقية ما يقدمه الطلاب من تكليفات. كما أن أغلب الطلاب بدورهم يحرصون على القيام بما يُسند إليهم من تكليفات خير قيام.

ومن الدروس المهمة التي تعلّمها في بداية التحاقه بالجامعة، كان يطرح رأيه ويصرّ عليه مهما كلفه من ثمن، لكن مُعلمة اللغة الإنجليزية لاحظت ذلك، وتعاملت مع الموقف بحكمة؛ فاشركته في نقاشات صفية عميقة ليتبين صواب رأيه من خطئه. كما أسهم تعامله مع الطلاب من الاطلاع على وجهات نظر الثقافات المختلفة لكثير من القضايا المهمة. تعلّم من هذه الخبرة مهارة حُسن الإصغاء سواء اتفق مع الآخرين أم لم يتفق معهم.

ولعل أهم خبرة جامعية اكتسبها هي أن الجامعات الغربية لا تعتمد طرق التدريس التي تركز على الحفظ والاستظهار، بل تطلب الفَهم والتطبيق وتركز على

التفكّر والبحث والاستقصاء ، لذلك عانى كثير من طلاب دول العالم الثالث من ذلك؛ كونهم لم يتعودوا على أساليب التدريس الحديثة تلك في بلدانهم.



استنتاج (٥)

من المهم أن يكتسب الشخص القدرة على حسُن الإصغاء حتى يستطيع أن يتفهم وجهات نظر الآخرين.

(حسُن الإصغاء)

عند زيارة مدارس تلك البلاد، وجد منير –أيضًا– أن تركيز المعلمين لا يقتصر على الحفظ، بل يمتد ليشمل مهارات التفكير والمهارات المعرفية. ويغلب على حصص المواد العلمية العمل المختبري، والاستقصاء والبحث والتنقيب. ويعامل الدارس بصفته عالمًا صغيرًا، وليس إنسانًا جاهلاً، كما هو الحال في كثير من بلدان العالم الثالث.

ومن النوادر التي واجهها منير، أثناء دراسته، أن حَصَل في أول اختبار شهري في إحدى المواد على درجة متدنية. وعندما ذهب لمناقشة أستاذ المادة، فاجأه الأستاذ بالقول: إن ما كتبه غير ذي صلة بموضوع السؤال، فالمطلوب تفسير من منظور مختلف للموقف والتفكّر فيه، وليس تكرار التفسير الوارد في الكتاب المقرر، وهذا ما لم يكن منير قد تدرّب عليه من قبل.

وخلال زياراته لعدد من المدن، بخاصة أثناء عطلة نهاية السنة، تعجّب منير من تلك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي يغطيها جمال طبيعي خلاب، وشدّ انتباهه حركة الناس وتنقلهم بين المدن، حيث يتميز الناس هناك بالتنقل بين المدن الكبيرة نتيجة انتقال أعمالهم أو دراستهم.



استنتاج (٦)

يعدُّ التفكير إحدى المهارات الرئيسة التي تسعى الجامعات الغربي لتنميتها لدى الطلاب.

(التفكّر)

على الرغم من أن احتكاك منير بالآخرين، كما هو حال الطلاب الأجانب، يقتصر على الأكاديميين في الجامعات وزملائهم الطلاب، فقد سجلت ذاكرته العديد من الصفات التي يتصف بها الناس هناك. فمثلاً وجد مصداقية وأمانة وثقة في التعامل بين الناس، كما لاحظ اهتمام الناس بمظهرهم حتى لو كانوا من كبار السن.

ولفت انتباهه، حرص الناس على الالتحاق بالنوادي الرياضية، وممارسة الرياضة بشكل دوري حتى كبار السن منهم. كما لفت انتباهه –أيضًا– أن الناس يحبّون أن يرفهوا عن أنفسهم في الخروج لتناول بعض الوجبات في المطاعم، والذهاب إلى السينما لمتابعة الأفلام الحديثة، وحضور الاحتفالات والمناسبات العامة.

لكن ما أثار استغربه هو أن وجد الغربيين لا يتحدثون في السياسة إلا فيما ندر، لكنهم بالمقابل نهمون على القراءة، حيث يقرؤون باستمرار: في القطار، في المطار، في الطائرة، ويتابعون آخر ما صدر من الكتب كل شهر. كما أنهم يحبّون العمل، فهم يعملون في حدود ثمان ساعات في اليوم، ويمكن أن يمتد العمل حتى (١٢) ساعة، حيث يعمل بعضهم أكثر من عمل لمواجهة التزاماتهم المالية نهاية الشهر.



استنتاج (٧)

بعد أن كان منير يُلح على رأيه، مكنته الدراسة والاختلاط بطلاب من ثقافات متنوعة، وذوي رؤى متعددة من تقبل آراء الآخرين.

(المرونة في التفكير)

الخلاصة

- تؤسس الجامعات المتقدمة لخدمة أغراض التنمية في المناطق التي تقام فيها.
- تمنح الجامعات المتقدمة طلابها ثقة كبيرة.
- يتصف أساتذة الجامعات بالتفاني في العمل والإخلاص فيه.
- تساعد الجامعات المتقدمة طلابها على اكتساب مهارات عصرية مهمة.
- لا تعتمد الجامعات المتقدمة على طرق التدريس التي تقوم على الحفظ، بل تمتد لتشمل: الفهم، والتطبيق، والتفكّر، وطرق البحث، والاستقصاء.

التعليم في الخارج

"الحكمة ضالة المؤمن، أنّا وجدها فهو أحق الناس بها".
(حديث شريف)

اكتسب منير وزملاؤه خبرات تعلّم جديدة. فلقد وجدوا أن التعليم سواء في الدول المتقدمة، يختلف اختلافًا كبيرًا عن التعليم في بلادهم. فمن خلال تواصله بالهاتف مع زملائه، تأكد له أن التعليم في الخارج يهدف، بشكل عام، إلى تفجير طاقات المتعلّمين، وتنمية تفكيرهم وإبداعاتهم، وصقل شخصياتهم لتصل إلى أقصى ما تسمح به قدراتهم. لذلك فكّر أن يدعو زملاءه الدراسين في البلدان المجاورة إلى لقاءٍ مشابهٍ للقاء الذي عقدوه في بلادهم قبل سفرهم للدراسة في الخارج، بغرض تحليل طبيعة التعليم في الدول المتقدمة.

تواصل منير مع بقية زملائه وعرض عليهم الفكرة، ولاقت استحسانًا كبيرًا من الجميع، بخاصة أن مثل تلك اللقاءات تثري معارفهم وتساعدهم على التوصل لاستنتاجات مهمة. واتفقوا على عقد ذلك الاجتماع في آخر لقاءاتهم السنوية، قبل العودة إلى الوطن، وذلك في مدينة تقع في مدينة متوسطة بينهم بضيافة زميليهم قائد وإلهام.

رتب كل من منير، وسند، وعادل، ومُهجة إجراءات السفر، واستقلوا شبكة القطارات متجهين نحو زميليهم قائد وإلهام. وبدورهما رتب قائد وإلهام كل متطلبات استضافة زملائهما، وهيأ كذلك مكان اللقاء في إحدى غرف اجتماعات ملحقية بلادهم. كما حرصا على أن يكونا في الموعد المحدد لاستقبال ضيوفهما من محطات القطارات، واصطحابهم إلى أماكن إقامتهم بالتنسيق مع ملحقية سفارة بلادهم.

وفي صباح يوم جميل، التقى الزملاء جميعًا وتوجهوا إلى سفارة بلادهم لأداء واجب التحية، ثم بدؤوا لقاءهم. بدأ قائد الحديث مرحبًا بزملائه، ومقدرًا لهم تحمل عناء السفر لحضور هذا اللقاء الذي سيعود بفائدة كبيرة عليهم وعلى بلادهم. ثم أعطى للجميع وقتًا كافيًا لتبادل أطراف الحديث حول معيشتهم خارج وطنهم، وعن المدن التي يدرسون فيها، وتلك التي زاروها، وعن الجامعات التي يدرسون فيها، وعن طباع الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وغيرها من الأمور التي تثير أشجانهم.

سُعد الجميع بهذا اللقاء، وشكروا "منير" على هذه الفكرة، كما شكروا "قائد" و"إلهام" على استضافة اللقاء. ثم سلم قائد إدارة الحديث لمنير.

بدأ منير اللقاء بشكر جميع الزملاء لموافقتهم على المشاركة في اللقاء، مبينًا أهميته في إثراء خبرات الجميع، وأهمية الاستنتاجات التي سيتم التوصل إليها في تطوير التعليم في بلادهم.

فضّل منير البدء بمقدمة عامة لتوجيه النقاش، فقال: "لا أشك، مطلقاً، في أنكم وجدتم نظام التعليم في هذه البلدان مختلفًا تمام الاختلاف عن نظام التعليم في بلادنا. وبالنسبة ليّ، ومن خلال تواصلي الهاتفي معكم، وجدت أن نظام التعليم هنا يؤكد على تنمية قدرات التعلّم لدى الطلاب؛ وذلك باستخدام مدى واسع من طرق التدريس، حيث تقوم المدارس والجامعات بتهيئة فرص وفيرة للمتعلّمين تحثّهم على التفكير والتأمل فيما يتعلّمونه. ولا يعتمد التعليم لديهم على كم المعلومات التى يكتسبها الطلاب قدر اعتماده على كيفية اكتساب تلك المعلومات؛ كما أنه يركز على القراءة النقدية من خلال تشجيع مهارات التحليل والاستنباط، وينمي التعلّم الذاتى".

وعن تجربته الشخصية في الاستفادة من طرق التعليم في الخارج، استطرد منير قائلاً: "لقد استفدت شخصيًّا من هذا النوع من التعليم؛ لأنه يساعد الناس على اكتشاف أنفسهم، وعلى اكتشاف البيئة من حولهم عن طريق استعمال جميع الحواس. إذ إن

المتعلّمين هم مَن يبحثون بأنفسهم، ويجربون بأنفسهم، ويستنتجون بأنفسهم، ويقتصر دور المعلمين وأساتذة الجامعات على تهيئة البيئة التعليمية والتوجيه والتقييم".

بعد ذلك نُقل الحديث إلى مُهجة؛ كونها متخصصة في علم نفس التعلّم، فقالت: "من خلال خبرتي وتخصصي الدقيق في علم نفس التعلّم، أستطيع أن أقول: إن هذا الفَهم المختلف للتعليم في الغرب عنه في بلادنا يمكن أن يُعزى إلى تغير مفهوم الذكاء عندهم عن الفَهم الذي ساد لديهم في الماضي والذي ما زال منتشرًا في بلادنا. فالنظرة المعاصرة للذكاء ترى بأنه ديناميكي وليس استاتيكي أو ثابت. فلقد اقتصرت النظرة القديمة للذكاء على وصفه بأنه وراثي، وبالتالي من غير الممكن تنميته وتطويره. أما النظرة المعاصرة ، فترى أن الذكاء قابل للنمو والتطوير إذا ما توافرت الظروف المناسبة لذلك. وهو ما يفتح آفاقًا كبيرة أمام المربّين من معلمين وأساتذة جامعات لتطوير التفكير وتنمية الذكاء وزيادة تحصيل المتعلّمين".

ثم جاء دور سند في الحديث، فأضاف إلى ما قالته مُهجة: "من منظور المشتغلين بالمناهج الدراسية، أرى أن مشكلة النظرة القديمة للذكاء تكمُن في أنها تحمل مضامين تربوية سلبية؛ فهي تحصُر عملية التعليم والتعلّم في حفظ المعارف من حقائق ومعلومات. أما النظرة المعاصرة، فتفتح آفاقًا جديدةً أمام المتعلّمين والتربويين والمجتمع. لقد تمَّ تحليل مكونات العملية التعليمية، التي كانت مقتصرة على المعرفة، إلى مكوناتها الحقيقية، فظهرت مكونات جديدة شكّلت نقطة تحول في تفكير التربويين في جميع مستوياتهم التعليمية؛ فهي تشمل اليوم، إلى جانب المعارف، مكونات أخرى مهمة، بل إن البعض ينادي بالبدء بأكثرها عمومية؛ لأنها الموجّهة والمحفّزة لاكتساب بقيتها من معارف وغيرها".

وأضاف: "في تقديري، فإن المسألة تتعلق هنا بما ينبغي أن يتعلّمه الطلاب حتى يصبحوا مفكرين جيدين؛ لأن تعلّم المعرفة فقط لا ينمي سوى قدرة الطلاب على التذكر، وهو أمر لا نقلل من أهميته، فالفرق بين المتعلّم وغير المتعلّم يكون بمقدار ما يعرفه

المتعلّم. لكن لكي يكون التعلّم جيداً، ولكي نستطيع إعداد كوادر مبتكرة ورائدة، ينبغي أن نساعدهم على تنمية مهارات جديدة تتصل بكيفية الحصول على المعرفة".

هزَّ عادل رأسه بالموافقة، وطلب الحديث؛ فهو متخصص في تقويم التعلّم، ولا بد من أن يضع النقاط على الحروف، فقال: "في رأيي، وفي ضوء ما ذكره الزملاء الذين سبقوني في الحديث، أجد أن مسئولية المؤسسات التعليمية، من مدارس وكليات وجامعات، أصبحت اليوم أكثر تعقيداً. إنها مطالبة بأن تنمي لدى الطلاب المعارف، ومهارات التفكير، والمهارات المعرفية، وعادات التفكير، والاتجاهات والقيم، والتي تمثل مكونات عملية التعليم والتي كانت تقتصر، في الماضي، على المعارف. وربما ما يقصده زميلنا سند في حديثه بأهمها هو عادات التفكير".

واختتم عادل حديثه بالقول: "على أي حال، فإن كل هذا يتطلب إعادة النظر في أساليب التقويم الحالية، لتشمل ليس فقط أسئلة الحفظ والاستظهار، وإنما أيضًا أدوات تقويم، تفحص مدى اكتساب المتعلّمين مستويات معرفية متقدمة مثل التحليل والتركيب والاستنتاج".

أما إلهام، فبحكم تخصصها في طرق التعليم، فتناولت الموضوع من منظورها، قائلة: "هذا الفَهم الجديد حول الذكاء الذي ذكرته لنا زميلتنا مُهجة وحول مكونات عملية التعليم التي عددها زميلنا عادل، شكّل تحولاً جذريًّا في طرق التعليم والتعلّم المستخدمة في التدريس. وظهر اليوم، ما يسمى بـ "التعلّم النشط". والتعلّم النشط هو مظلة كبيرة تضم تحتها العديد من طرق التعليم والتعلّم، مثل: المناقشة والحوار، والتعلّم التعاوني، والاستقصاء، والتجريب، وحل المشكلات، والمشروعات. والهدف من استخدام ذلك المدى الواسع من طرق التعليم والتعلّم هو تنمية تفكير المتعلّمين من خلال تنمية مكونات عملية التعليم والتعلّم الخمسة؛ كونها تشكّل مفتاح العقل، فهي التي توجهه وتحثه على اكتساب المعرفة بمختلف أنواعها".

التعلم النشط

طرق التدريس التي تشرك المتعلمين من خلال الدروس في القيام بأنشطة تدعوهم للتفكير فيما يتعلمونه.

وأضافت إلهام: "أهم ما يميّز التعلّم النشط أنه يساعد على اندماج المعلومات الجديدة بصورة حقيقية في عقول المتعلّمين بما يُسهم في تنمية ذكائهم. فمن قراءاتي البحثية عرفت أن إنصات المتعلّمين في غرفة الصف أو قاعة المحاضرات لا يشكل بأي حال من الأحوال تعلّمًا حقيقيًّا، بل تعلّم زائف يفقده المتعلّم بمجرد انتهاء الامتحانات. ولكي يكون التعلّم حقيقيًّا ينبغي أن ينهمك المتعلّمون في قراءة أو كتابة أو مناقشة أو تجريب عملي أو حل مشكلة تتعلق بما يتعلّمونه سواء في المدرسة أو الجامعة. وبصورة أعمق فالتعلّم النشط هو الذي يتطلب من المتعلّمين أن يستخدموا قدرات تفكير عليا، كالتحليل والتركيب والتقويم".

وأوضحت أن طرق التعلّم النشط تختلف كثيرًا عن طرق التعلّم التقليدية التي تقوم على الإلقاء، كون التعلّم التقليدي تنتج عنه مشكلات كثيرة، لخصتها على ورق مقوى، وعرضتها على زملائها، وهي:

- يفضل المتعلّمون حفظ جزء كبير مما يتعلّمونه، وهذا مرهق لقدراتهم العقلية.
- يجعل من الصعب على المتعلّمين تذكر الأشياء إلا إذا ذُكرت وفق ترتيبها في الكتاب، وهذا مخالف لما سيواجهونه في الواقع؛ فالمشكلات وحلولها لا تظهر لنا وفق تسلسل معين ثم تطلب منا اختيار الإجابة المناسبة.
- يفضل المتعلّمون الموضوعات التي تحتوي حقائق كثيرة على الموضوعات النظرية التي تتطلب تفكيرا عميقًا؛ لأن التعلّم التقليدي لا ينمي التفكير لديهم.

- يؤدي الحفظ من دون فَهم المعنى إلى اختلاط الاستنتاجات بالحجج، والأمثلة بالتعاريف عند المتعلّمين، وهذا يصيبهم بالإرباك.
- غالبًا ما يعتقد المتعلّمون أن ما يتعلّمونه خاص بالمعلم وليس له صلة بالحياة، وهذا غير مفيد في الحياة".

ثم واصل الحديث عند هذه النقطة عادل، وعرض أبرز فوائد التعلّم النشط وفقًا لنتائج تقويم التعلّم، لخصها على النحو الآتي:

- يساعد المتعلّمين على التوصل إلى فهم المعنى الإجمالي لموضوع التعلّم؛ فلا يتوهون في التفاصيل.
- يتطلب من المتعلّمين أن يخصصوا وقتًا كافيًّا للتفكير بأهمية ما يتعلّمونه، مما ينمي تفكيرهم.
- يحاول المتعلّمون ربط الأفكار الجديدة بمواقف الحياة التي تنطبق عليها؛ مما يثبت المعلومات لديهم.
- يربط المتعلّمون كل موضوع جديد يدرسونه بالموضوعات السابقة ذات الصلة؛ مما ينمي قدراتهم على استخدام المعارف مستقبلاً.
- يحاول المتعلّمون الربط بين الأفكار في المادة التي يدرسونها مع الأفكار الأخرى المقابلة في المواد الأخرى؛ مما يسهل عليهم الربط بين مختلف المعارف.
- بعد تراكم الخبرة في التعلّم النشط لدى المتعلّمين، يصبح لديهم القدرة على التعلّم بأنفسهم؛ كونهم قد امتلكوا أدوات التفكير اللازمة للتعلّم الجديد.

واختتم عادل حديثة قائلاَ: "ما يميز التعلّم النشط هو مشاركة المتعلّمين النشطة في عملية التعليم، حيث يقومون بأنشطة عدة تتصل بموضوع التعلّم، مثل: البحث، والقراءة، والكتابة، وطرح الأسئلة، والمناقشة، والاكتشاف، وحل المشكلات، واللعب بالنسبة للصغار. والأهم من ذلك، هو أنه لكي ينهمك المتعلّمون في التعلّم النشط يجب أن يكتسبوا عادات التفكير المنتج التي توقظ تفكيرهم وتنشط عقولهم للتعلّم".



استنتاج (٨)

يساعد التعلّم النشط المتعلمين على طرح الأسئلة والبحث في إجابات عنها، مما ينمي قدراتهم على قبول الأمور على علاتها.

(التساؤل وطرح المشكلات)

ثم تناول قائد الحديث، بوصفه متخصصاً في القيادة التعليمية، فقال: "أنا أنظر إلى المسألة من منظور إداري، حيث رأيت تحولاً في أدوار كل من المعلم أو أستاذ الجامعة والمتعلّمين. ففي التعلّم النشط، يتحول دور المعلم أو المحاضر من الملقي إلى الموجه والمرشد والميسر للتعلّم. فهو لا يسيطر على الموقف التعليمي كما في النمط التقليدي، كما أنه لا ينسحب من الموقف التعليمي (كما في النمط الفوضوي)، ولكنه يدير الموقف التعليمي إدارة ذكية، حيث يوجه المتعلّمين نحو الهدف من الموقف التعليمي. وهذا يتطلب منه الإلمام بمهارات مهمة تتصل بطرح الأسئلة وإدارة المناقشات، وتصميم المواقف التعليمية المشوقة والمثيرة، وغيرها".

ثم وقف وكتب على ورق مقوى ما استخلصه من فوائد هذا النوع من التعليم، وهي:

- يتوصل المتعلّمون، من خلال التعلّم النشط، إلى حلول ذات معنى للمشكلات؛ لأنهم يربطون المعارف الجديدة بأفكار وإجراءات مألوفة عندهم.
- الحاجة إلى التوصل إلى ناتج أو التعبير عن فكرة، خلال التعلّم النشط، تجبر المتعلّمين على استرجاع معلومات من الذاكرة ثم ربطها ببعضها، وهذا يشبه المواقف الحقيقية التي سيستخدم فيها المتعلّم المعرفة.
- يمكّن التعلّم النشط المتعلّمين من اكتشاف قدراتهم على التعلّم من دون مساعدة سلطة المعلم أو أستاذ الجامعة، وهذا يعزز ثقتهم في أنفسهم وينمي الاعتماد على الذات.

- يفضل معظم المتعلّمين أن يكونوا نشطين خلال التعلّم، لا متلقين سلبيين.
- تكون المهمة التي ينجزها المتعلّم بنفسه، خلال التعلّم النشط، أو يشترك فيها مع زملائه ذات قيمة أكبر من المهمة التي ينجزها له شخص آخر.

يتعلّم المتعلّمون، من خلال التعلّم النشط، أكثر من المحتوى المعرفي، فهم يتعلّمون مهارات التفكير العليا، وعادات العقل، والقيم والاتجاهات الإيجابية؛ فالمتعلّمون يتعلّمون استراتيجيات التعلّم نفسه، أي طرق الحصول على المعرفة.



استنتاج (٩)

تصمم في التعلّم النشط تجارب نتائجها غير معروفة مسبقًا، مما ينمي لدى الطلاب تقبل الغموض في العلم.

(تحمل الغموض)

واختتم قائد حديثه بالقول: "يُكسب هذا النوع من التعليم الطلاب الغربيين قدرات واستعدادات مكنتهم من التفوق على أقرانهم في دول العالم الأخرى، وبالذات دول العالم الثالث. والدليل على ذلك نتائج الدراسات التربوية الدولية المقارنة، التي أثبتت تفوقهم على أقرانهم في دول العالم الثالث. كما يؤكد ذلك كمية جوائز نوبل وبراءات الاختراع التي يحصدها علماؤهم".



استنتاج (١٠)

يُعطى المتعلمين في أثناء التعلّم النشط تجارب غير موجهة، مما يتطلب منهم تجريب أكثر من طريقة التوصل إلى نتائج.

(المخاطرة المسؤولة)

في نهاية اللقاء، شكر منير زملاءه على إسهاماتهم في هذا اللقاء، واستعرض أهم الأفكار التي خرج بها اللقاء، ملخصًا إياها على ورق مقوى، وهي:

١ - يسعى التعليم في الغرب إلى تفجير طاقات المتعلّمين وتنمية تفكيرهم وإبداعاتهم إلى أقصى ما تسمح به قدراتهم.

٢ - تؤكد النظرة المعاصرة للذكاء بأنه ديناميكي وليس "استاتيكي"، وبالتالي فإنه قابل للنمو والتطوير إذا ما توافرت الظروف المناسبة.

٣ - تحصُر النظرة القديمة للذكاء عملية التعليم والتعلّم في حفظ الحقائق والمعلومات.

٤ - يتطلب التعلّم الجيد مساعدة المتعلّمين على تنمية مهارات تتصل بكيفية الحصول على المعرفة.

٥ - أصبحت مسئولية المؤسسات التعليمية (مدارس وكليات وجامعات) أكثر تعقيداً اليوم. فهي مطالبة بأن تنمي لدى المتعلّمين: المعارف، ومهارات التفكير، والمهارات المعرفية، وعادات التفكير، والاتجاهات والقيم.

٦ - شكّل الفَهم الجديد للذكاء تحولاً جذرياً في طرق التعليم والتعلّم، وظهر اليوم، ما يسمى بـ "التعلّم النشط".

٧ - التعلّم النشط هو طرق التدريس التي تشرك المتعلّمين خلال الدروس في القيام بأنشطة تدعوهم للتفكير فيما يتعلّمونه.

٨ - يُعد التعلّم النشط مظلة كبيرة تضم تحتها العديد من طرق التعليم والتعلّم، مثل: المناقشة والحوار، والتعلّم التعاوني، والاستقصاء، والتجريب، وحل المشكلات، والمشروعات.

٩ - ظهر تحول في أدوار كل من المعلم أو أستاذ الجامعة والمتعلّمين. ففي التعلّم النشط، يتحول دور المعلم أو المحاضر من دور الملقي إلى الموجه والمرشد والميسر للتعلّم.

١٠ - ينمي التعلّم النشط عادات تفكير إيجابية، مثل: التساؤل وطرح المشكلات، وتحمل الغموض، والمخاطرة المسؤولة.

سُعد الجميع بهذا اللقاء، فقد شكّل فرصة نادرة للالتقاء فيما بينهم والاطمئنان على بعضهم. فضلاً عن الاستفادة العلمية والمعرفية، فقد توصلوا إلى أفكار مهمة حول التعليم في الدول المتقدمة.

في الختام، شكر الجميع زميليهم قائد وإلهام على حُسن الاستقبال والضيافة، كما شكروا "منير" على الفكرة، وعلى جهوده في إدارة اللقاء.

وفي الأيام التالية، عاد الزملاء الأربعة إلى البلدان التي يقيمون فيها لاستكمال دراستهم.

العودة إلى الوطن

"وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه..
نازعتني إليه في الخلد نفسي".
(أحمد شوقي)

بعد أن ودع منير زملاءه، واقفل عائدًا لمواصلة دراسته، أحسَّ معنى مرارة البُعد عن الوطن. لقد اكتشف خلال دراسته خارج بلده، أن للوطن شوقًا مختلفًا تمامًا عن أي شوق آخر، لا يعرف ذلك الشوق حقّ المعرفة إلا من ذاق مرارة البُعد عن الوطن. إنه شعور آسر يتسلل إلى قلب المرء يحرمه من التمتع بما حوله حتى لو كان في أجمل بلاد الأرض.

أخذ الحنين إلى الوطن يطغى على تفكير منير، يجعله لا يفكر سوى في وطنه، كما لمح ذلك بوضوح على وجوه زملائه حين التقاهم آخر مرة. فلا شيء يغني الإنسان عن الوطن، عن العودة إلى أهله وصحبه ومحبيه، إلى أرض وطنه: ناسه، ودياره، وشوارعه، وساحاته، وسهوله، ووديانه، وجباله. وكان يُحدّث نفسه: يبدو أن الكثيرين لا يعرفون أن البعيد عن وطنه يسير بجسده في الغربة، لكن روحه تبقى هناك مع أهله، وباله وقلبه عند أحبّته، الذين يسكنون ديارًا بعيدة خلف بحار ومحيطات واسعة.

في تلك الديار البعيدة، اكتشف منير أن كثيرًا من أمور الحياة اليومية التي لا يعيرها أهل البلد بالاً، تتحول إلى شوق فياض ورموز ثمينة عنده. كم يشتاق المرء إلى لقاء أهله وأصدقائه، وناس بلده، ولشوارع مدينته وأزقتها، ويشتاق إلى شروق شمس بلده، وإلى غروبها؛ ويشتاق لهطول المطر، وصفاء السماء، ونجوم ليل بلده.

وكلما اشتد به الشوق، كان يتذكر قول الشاعر العربي الكبير الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح:

"وطن النهار ومعبد الزمن أنا عـائدٌ لأراك يا وطـــــني
صنعاء تدعوني مواسمها وعواصف الأشواق تعصـــرني
أنا أنتَ في حزني وفي فرحي أنا أنت في صحوي وفي وسني
حاولت أن أنساك فانطفأت طرق الهوى في سائر المدنِ
وعلى ثراك الروح هائمةٌ، لا تخشَ: ليس هنا سوى البدنِ
حملتك أشجارًا وأضرحةَ عيني فلم تهجع ولم تهنِ"

شاهد منير كثيرًا من الغائبين عن بلدانهم قضوا نحبهم في تلك البلاد وهم يتوقون للعودة إلى ديارهم! وكم منهم ظل يؤجل العودة إلى مسقط رأسه حتى غزا الشيب رأسه من دون أن يعود! وكم من بعيد عن وطنه قاسى وعانى الأمرّين، وظل يؤجل سعادته إلى حين عودته إلى أرض الوطن، ولكن سعادته ظلت مؤجلة ورهينة عودة لم تتحقق، وأنى له بسعادة بعيدًا عن الوطن! ظلت تلك المشاعر تجتاح "منير" كلما تذكر وطنه، وتزداد يومًا بعد يوم كلما قطع شوطًا في مشواره الدراسي، وقرُب موعد عودته إلى بلده.

كل ذلك الحنين دفع منير– كما هو شأن بقية زملائه– إلى بذل المزيد من الجهد لاستكمال بقية المتطلبات الدراسية للتخرج في أقصر فترة ممكنة.

درس منير وبقية زملائه بجد واجتهاد، واستثمروا كل الوقت المتاح لهم لإكمال دراستهم. وعندما استكملوا متطلبات الدراسة، بدؤوا بعمل الترتيبات اللازمة لمناقشة رسائلهم العلمية، ثم الدفاع عنها للحصول على الشهادات المطلوبة.

بعد أن أكمل متطلبات الدراسات العليا، أسرع منير يجمع أغراضه، وأخذ يرسل بعضها عبر البحر، وبالذات الكتب والمراجع. ثم حزم حقيبة سفره، وقرر العودة إلى الوطن. ودّع منير زملاء الدراسة من جنسيات مختلفة، وتواصل مع زملائه الخمسة ليبلغهم بموعد سفره؛ ثم هاتف أهله بموعد الوصول. أكمل ترتيبات السفر على عجل، متنفسًا الصعداء، فالشوق للوطن لا يضاهيه شوق.

وفي المطار، أعلنت المذيعة الداخلية عن استعداد الرحلة للإقلاع، وطلبت من المسافرين التوجه إلى بوابة المغادرة. حمل منير حقيبته الصغيرة، وقبل ذلك أشواقه الحارة ودفء عواطفه بين جنبيه وتوجه لصعود الطائرة. وبلهفة كبيرة اتجه إلى بوابة الطائرة وقدماه تسابق بعضهما. دخل الطائرة وجلس على المقعد المخصص له، ثم التفت يُمنة ويُسرة علّهُ يرى مسافرًا بملامح عربية يرافقه خلال الرحلة. وعندما يئس من ذلك، راح ينظر من خلال النافذة إلى التلال الصغيرة المحيطة بمدرج المطار، ويتخيل كيف أنها تحولت إلى أرض منبسطة جميلة. وتخيل صفاء سماء بلاده، بخاصة قبيل غروب يوم ممطر، ثم ارتسمت بسمة مشرقة على وجهه. وعندما أقلعت الطائرة، تنهد نهدة عميقة وأغمض عينيه تلقائيًّا ليعود بذاكرته إلى تلك اللحظات التي ودّع أثناءها وطنه قبل سنوات عدة. تذكر الأهل والأصدقاء، وتساءل في نفسه، هل مازالوا كما كانوا، أم يا ترى غيرهم الزمن؟ هل الجيران في الحي ما زالوا يحتفظون بنفس العلاقات الاجتماعية القوية التي تجمعهم، أم غيرهم الزمن؟ هل الزملاء في الجامعة ما زالوا بنفس الحماس والجد في العمل؟ كيف حال الناس في القرية؟ هل تطور التعليم في بلادي؟ أجاب منير، في نفسه، لا بد من أنهم كما كانوا، بنفس الطيبة والإخوة والتسامح، ولا بد من أن التعليم صار أفضل من ذي قبل.

انتقل منير بعد ذلك يفكر في برنامج الوصول إلى وطنه، وهو يرقُب عقارب الساعة بين الفينة والأخرى يحسُب المتبقي من الوقت حتى الوصول. سجل: أولاً سأصل إلى المنزل، ثم سأزور أصدقائي، وبعدها سأزور الزملاء في الجامعة، وفي نهاية الأسبوع، سأتوجه إلى القرية لزيارة الأهل للاطمئنان عليهم.

انتقل منير من مطار لآخر، وهو لم يقطع حبل أفكاره، ولا حديث ذكرياته عن الوطن والشوق الجارف للحظة الوصول. وفي المحطة قبل الأخيرة، صعد الطائرة عدد كبير من المسافرين من أبناء بلده؛ فسُعد كثيرًا بذلك، وقال في نفسه، هذه فرصة لتعرّف أخبار البلد قبل الوصول. مال منير في اتجاه الشخص الذي يجلس بجواره، وتعرف

عليه، ثم سأله منذ متى ترك البلد؟ وبعد أن عرف منه أنه تركها من فترة قصيرة، بدأ يسأله عن البلد، وأحوالها، وعن أحوال الناس، وعن الطقس هذه الأيام، وغيرها من الأسئلة التي كانت تجول في خاطره. ولم تتوقف أسئلته إلا بعد أن داهمه النعاس، نتيجة إرهاق السفر الطويل، فغط في نوم عميق.

ولم يشعر إلا بالشخص الجالس بجواره يوقظه بعد وصول الطائرة إلى أرض الوطن، شكره منير كثيرًا، ثم قفز فجأة من على مقعده وسارع الخطى إلى بوابة الوصول بلهفة كبيرة لم يعهدها من قبل. أشار إليه أحد موظفي المطار بالاتجاه إلى أحد الطوابير المزدحمة التي تعج بالمسافرين؛ هرول منير مسرعًا، وبدأ في استكمال إجراءات الوصول. ثم اتجه إلى مكان الحقائب، وانتظر هناك حتى وصول حقائبه، فأخذها وتوجه مباشرة إلى بوابة المطار. هناك استقبله أهله وأقاربه. عانقهم منير واحدًا واحدًا، ثم استقلوا سيارة إلى المنزل. لم يحسّ منير بالوقت كيف مرًّا فقد انشغل بالحديث مع الأهل بالسؤال عن أحوالهم وأحوال البلد حتى وصلوا المنزل. كان الوقت متأخرًا من الليل، سلم منير على أبيه وأمه وبقية الأهل، ثم تناولوا العشاء معًا، واستلقى على فراشة من شدّة التعب.

في اليوم التالي، قدِم الجيران للسلام على منير، وتهنئته باستكمال دراسته وبسلامة العودة إلى أرض الوطن. وبعد الظهيرة توجه إلى بقية جيرانه من كبار السنِّ في الحارة للسلام عليهم. وعاد في المساء إلى منزله للحديث مع الأهل، وواصل معهم حديثًا لم ينقطع.

خصص منير عدة أيام لزيارة قريته، وهناك استعاد ذكرياته الجميلة، سواء ما اتصل منها بمنزلهم، أو المراعي المحيطة، أو كُتّاب القرية، وغيرها. كما زار الأماكن التي تعلق بها صغيرًا، وسلم على أهل القرية، ثم عاد إلى المدينة.

كان منير يتمتع بحماس شديد، ورغبة كبيرة في نقل ما تعمله لأبناء وطنه. وكان متشوقًا لاستلام عمله؛ فمع بداية الأسبوع التالي، توجه منير إلى الجامعة لمقابلة

رئيسها، ونائبه، ثم توجه إلى الكلية للسلام على قيادتها وزملائه واستلام عمله رسميًّا. وبعد استكمال الإجراءات الروتينية تسلّم منير جدوله التدريسي، وبدأ عمله بكل همة ونشاط.

كذلك عاد بقية زملائه في فترات متقاربة (عادل، وقائد، وإلهام، ومُهجة، وسند) خلال العام نفسه تقريبًا، وهم جميعًا يحملون أعلى الدرجات العلمية من جامعات مرموقة. واستلم الجميع جداولهم التدريسية في الجامعة، وبدؤوا عملهم بهمة ونشاط عاليين يحسدون عليهما.

الخلاصة

يطغى الحنين إلى الوطن على تفكير الإنسان حتى لو كان في أجمل بلاد الدنيا.

التعليم في الحاضر

"ربّوا أولادكم على زمانهم، فإنهم ولدوا في زمان غير زمانكم".
(علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

" لا تفرض حدود تعلمك على طفل ما فهو مولود في زمن غير زمنك".

(رابندرانات طاغور)

استمر منير وزملاؤه في العمل الجامعي لسنوات عديدة، وسافر معظمهم للعمل في جامعات ومنظمات خارج البلد لفترة من الزمن. وعندما كانوا يستقرون في بلادهم، كانوا يلتقون شهريًّا لمناقشة فكرة ما في كل لقاء. تلك اللقاءات كانت غنية ومثمرة، حتى أن بعضًا من زملائهم في كليات أخرى حضروا معهم بعض تلك المناقشات العلمية المفيدة.

ومع مرور السنين لاحظ منير وزملاؤه أن العملية التعليمية وحال التعليم في بلدهم، كما بلدان مجاورة أخرى، يتدهور من عام لآخر، سواء في الكلية حيث يدرِسون أم في المدارس التي يشرفون على تدريب طلاب الكلية فيها، وكذلك الحال في بقية مدارس وجامعات الوطن.

هذا التدهور التعليمي أثار تساؤلات ودهشة لدى منير وزملائه، لذلك فكّروا في تشخيص واقع التعليم في بلادهم، وسبب تدهوره الكبير، مقارنة بالتعليم الذي كان سائدًا خلال الفترة التي كانوا فيها طلاب في المدارس وفي الجامعة.

وفي الزمان والمكان المحددين، جلس الجميع حول طاولة الاجتماعات لمناقشة الموضوع، وبدأ منير بالحديث، فشكر زملاءه على الحضور والمشاركة في هذا اللقاء التربوي المهم، وأعطى مقدمة عامة، فقال: "أرى أن العديد من الظروف مواتية اليوم، لتقديم تعليم

فعّال؛ فقد تحققت أمور كثيرة، من أهمها: تعميم التعليم، وانتشار المدارس في ربوع الوطن، وتطور الفكر التربوي، وتقدُم المناهج الدراسية، ووفرة المعلمين المحليين، وتطور وحداثة التجهيزات التعليمية، وزيادة مشروعات تطوير التعليم، والتقدم التقني (إنترنت، وهواتف نقالة، ووسائل الاتصال الحديثة)، وغيرها من الأمور التي أثرت العملية التعليمية وأزالت معاناة طلاب الأمس".

وأضاف: "لكن مشكلات التعليم كثيرة، فليس بالضرورة أن يكون الشخص من السلك التربوي، أو أن يكون مُلماً بما يحدث في قطاع التعليم من الداخل لكي تتّضح له مواطن ضعف التعليم الحالية، فكل المؤشرات تشير إلى أن تعليمنا يمرُّ بأزمة حادة، ويدخل في نفق مظلم. إننا نقع وسط كثير من المتاهات المُرشحة للزيادة والتعمق، فالعام الدراسي تتسرب أيامه في عطل واعتصامات وإضرابات وغياب غير مبرر؛ والنتيجة المباشرة لذلك تسجيل تدَنٍّ للمستوى التعليمي بشهادة نتائج الاختبارات الدولية ورجال التعليم أنفسِهم".

وتابع: "باختصار، لقد تغيرت أحوال التعليم اليوم عنها بالأمس، فالطلاب أصبحوا أقل حماساً للتعلّم، والمعلمون ليسوا سوى موظفين حكوميين، والأسر لم تعدْ تتابع أبناءها وبناتها بنفس الجدية، والدعم المجتمعي أقل منه عمّا كان في الماضي، فكيف ترون الأمر!؟".

وهنا بادر قائد وطلب الحديث، فقال: "يجد المتتبع لحال التعليم في بلادنا أن عدد المؤسسات التعليمية (من مدارس ومعاهد وكليات وجامعات) قد زاد بصورة كبيرة، وأن أعداد المعلمين من أبناء البلد قد تضاعف عشرات المرات، وارتفعت معدلات القيد في التعليم الأساسي عدة أضعاف، كما زاد معدل التحاق الفتاة بالتعليم، وزاد معدل التحاق الناس في صفوف محو الأمية، وانتشر التعليم الفني والتدريب المهني، وتوسع التعليم الجامعي بصورة كبيرة، وزاد عدد أعضاء هيئة التدريس من أبناء البلد في المعاهد والكليات والجامعات، وضاعفت الدولة من عدد المنح الدراسية الخارجية لخريجي الثانوية العامة".

ومضى قائد يشخص واقع التعليم قائلاً: "في نظري أن كل ما تحقق في قطاع التعليم يُعد نقطة إيجابية في مسيرة التعليم في البلاد، لكن المؤسف أن ذلك التوسع لم ترافقه آليات واستراتيجيات تحافظ على جودته؛ فتدهور النظام التعليمي كثيرًا. لقد تضخمت المدارس بأعداد كبيرة من الطلاب بصورة لم يسبق لها مثيل حتى مع التوسع في البناء، والفصول الدراسية ازدحمت، والمقاعد الدراسية لم تعدّ كافية، والمرافق المدرسية تدهورت، والمختبرات التعليمية غير كافية، والكتب المدرسية غير مكتملة، والمصادر التعليمية لم تعدّ تلبي احتياجات تلك الأعداد الكبيرة من الطلاب، ومستوى أداء المعلمين تدهور كثيرًا. كما أن معدل دخول المواطنين في قوائم الأمية أكبر بكثير من معدل المتحررين منها، ومعدل التّسرب من التعليم في ازدياد بخاصة بالنسبة للفتيات بعد إكمال التعليم الأساسي. وكشفت نتائج الطلاب في الاختبارات الدولية نتائج مؤلمة، كما أن مستوى طلاب الجامعة تدنى بصورة كبيرة، حتى أن كثيرًا منهم يفتقرون لأساسيات المعرفة".

وواصل حديثه متناولاً الإدارة المدرسية، فقال: "أما الإدارة المدرسية، فتتصف بالمركزية الشديدة التي تعكس طبيعة النظام التعليمي كله، بل ربما طبيعة الواقع السياسي في البلد. كما أن معظم كوادر الإدارة المدرسية لم تُعدّ إعدادًا منهجيًّا في عمل الإدارة المدرسية، ولم تدرب بصورة كافية للقيام بالمهام الإدارية في المدارس، ويقتصر دورها على متابعة انتظام الطلاب والمعلمين في الدراسة ومدى تغطية المنهج، ولا تتدخل كثيرًا في الشأن التعليمي، وتتركه للتوجيه التربوي الذي يعاني هو ذاته من مشكلات تربوية عميقة".

بعدها تحدثت إلهام، فتناولت موضوع المعلم، قائلة: "يشكو الجميع من إكراهات كثيرة تواجههم بمن فيهم المعلمون وأولياء الأمور. فالمعلمون يرجعون المسئولية إلى كثافة المناهج الدراسية ورداءتها، واكتظاظ الطلاب في الفصول الدراسية، وسوء ظروف العمل، وتفاوت الحوافز والامتيازات بين قطاع التعليم والقطاعات الأخرى. كما

يشكون من عدم رغبة الطلاب في التحصيل الدراسي، واهتمام كثير منهم بالهواتف النقالة والتسلية غير مبالين بالتعليم. والحال المادي للمعلم يرثى له؛ فقد اضطر كثير منهم إلى العمل في أكثر من وظيفة لمواجهة أعباء الحياة، كما أن شخصية المعلم تبدو ضعيفة أمام الطلاب، في الأغلب، وفي بعض المناطق ليس للمعلم احترام بين الطلاب بالقدر الكافي".

ثم انتقل الحديث إلى مُهجة، التي تناولت موضوع الطالب، فقالت: "بالنسبة للطلاب وأولياء أمورهم، فهم يرجعون انتكاسة التعليم إلى المدارس والمعلمين والحكومة بسبب كثافة المناهج الدراسية، ونقص التجهيزات المدرسية، وضعف كثير من المعلمين، ونقص الكتب المدرسية. ولقد أصبح لزامًا على كثير من الأسر أن تقتطع جزءًا من مصروفها الشهري للدروس الخصوصية، ليتمكن أبناؤها من تحقيق النتائج التي تؤهلهم للالتحاق بتخصص مناسب في الجامعة، بل أصبحت الدروس الخصوصية موضة بين الطلاب بخاصة طلاب الشهادات العامة. وضاعف من ذلك أن كثيرًا من الطلاب اليوم، أصبحوا كسولين ومهملين، وقد يصل الطالب إلى الصف التاسع من دون أن يتقن، للأسف الشديد، أساسيات القراءة والكتابة، مما يؤثر سلبًا على أدائه التعليمي مستقبلًا بصورة كبيرة".

ثم تحدث سند عن المناهج الدراسية، فبدأ حديثه قائلاً: " لا تواكب المناهج الدراسية، في بلادنا، التطورات المتسارعة في العالم، وهي تضم حقائق ومعلومات كثيرة لا تراعي مستوى المتعلّمين العقلي، ولا تتضمن أنشطة تحث المتعلّمين على التفكر والنقد والتحليل. ومع الأسف تتصف مناهجنا بالجمود، كما أنها لا تشجع على تنمية مهارات الفَهم والاستنتاج والتطبيق لدى المتعلّمين؛ فهي لم تتغير نحو الأحسن في السنوات الأخيرة، بل تغيرت نحو الأسوأ. وكل ما نعرفه عن المناهج ودرسناه سواء أثناء دراستنا الجامعية في بلادنا أم في الجامعات الغربية، لا يتم تطبيقه في مناهجنا الدراسية ! ومن سلبياتها –أيضًا– عدم تنوع أدوات تقييم المتعلّمين، فهي تتخذ الامتحان فقط وسيلة للتقييم على الرغم من اختلاف قدرات المتعلّمين وتوافر أدوات تقويم عديدة".

ثم قدمت إلهام مداخلتها حول واقع طرق التعليم، وهنا استهلت حديثها، قائلة: "أرى أن المؤسسات التعليمية (مدارس ومعاهد وكليات) تركز على الكم وتغفل الكيف، فتقدم معلومات جاهزة دون أن توفر لهم الفرص لتمحيصها وتحليلها، مما يترك الطلاب تائهين، أسرى الحفظ والاستظهار. وهذا لا يساعد على تنمية التفكير لديهم، ويضعف من قدراتهم المعرفية والفكرية، وبالتالي يتخرج لدينا جيل ضعيف غير قادر على المنافسة، وربما لن يكون قادرًا على قيادة البلد في المستقبل".

وأضافت: "في تقديري، فإن واقع الحال اليوم، يشير إلى أن جوهر التعليم في مدارسنا يقوم على الحفظ والاستظهار استعدادًا ليوم الامتحان فقط، وذلك عندما يقومون بإعادة تسليمها إلى مصدرها وهو المعلم، وهو ما سماه فيلسوف أمريكا اللاتينية التربوي الشهير باولو فريري "التعليم البنكي". وفي التعليم البنكي يكون الطلاب هم البنوك والمعلمون هم المودعون. أما الجامعات فهي ليست أحسن حالا من المدارس، حيث تعتمد طريقة التعليم نفسها، وهي المحاضرة في الغالب. وهذا كله تعليم يعمق التسلط ويغرس الاستبداد ويقوي الخضوع والإذعان، ويفرض هيمنة المعلمين وسلطتهم".

ولخصت حديثها بالكتابة على ورق مقوى النتائج السّلبية للتعليم التلقيني، وهي أنه:

١ - يضعف الفهم والتّحليل والنقد والبحث والتجريب والإبداع والتجديد والتعلّم الذاتي.

٢ - يقود إلى الاستسلام والتكيف مع القهر والاستغلال.

٣ - يحرم المتعلّمين من المشاركة والتفاعل، وينمي السكوت وشرود الذهن، ويثير الملل، بل النعاس والنوم.

٤ - يهمل حاجات واهتمامات المتعلّمين الحقيقية، ولا يوفر التدريب العملي التطبيقي، كما لا يهتم بمهارات المتعلّمين.

التعليم البنكي

تعليم سلبي يعتمد على إلقاء المعلم، وإنصات المتعلّمين، الذين يقومون بحفظ المعلومات والمعارف والحقائق، والاحتفاظ بها ما أمكن حتى يوم الامتحان عندما يسلمونها إلى مصدرها (المعلم)، الذي يقدم شيكًا (ورقة الامتحان) لسحب رصيده من المتعلّمين على كراسة الامتحان، ثم يقطع الطلاب صلتهم بالمعلومة بعد ذلك، ولا يرغبون في تذكرها. أي يكون الطلاب هم البنوك والمعلمون هم المودعون.

أما عادل، فقد تناول موضوع التقويم، فقال: "يقوم التقويم، في معظمه، على طريقة واحدة هي الامتحانات الورقية. وبدلاً من تحسين العملية التعليمية، أصبح التقويم أداة لترويع الطلاب وإرهاقهم، ليس وحدهم بل يمتد ليشمل أولياء أمورهم أيضًا. وقد أدى هذا إلى عدم الاهتمام بالتفكير، وإلى تفشي السلبية وتقوية النزعة الفردية عند الطلاب، والتركيز على الحفظ والاستظهار بدلاً من الفَهم؛ حتى اختفى التفكير والإبداع وحلّ المشكلات، وأصبح التقويم غاية في حد ذاته. كما تفشى الغش بخاصة في أثناء اختبارات الشهادات العامة، والذي يتمُّ بعضه بإشراف بعض المعلمين والإداريين، وأحيانًا بتدخل بعض أولياء الأمور".

التعليم التقليدي

تعليم يوجه الطلاب نحو الحفظ والاستظهار، وجمع الدرجات بغض النظر عمّا إذا كانوا فهموا المادة الدراسية فَهماً حقيقيًّا أم لا. كما قد يدفع بعض المعلمين إلى الإحباط، ويقود البعض الآخر إلى التلاعب بالدرجات، ويشجع آخرين على الغش والخداع.

كان منير آخر المتحدثين، متناولاً العلاقة بين المدرسة والمنزل، فقال: "تتصف العلاقة بين المدرسة والمنزل بأنها غير إيجابية، ويقتصر الأمر على متابعة المشكلات السلوكية للطلاب أو على حضور اجتماعات مجالس الآباء أو الأمهات التي لا تكون ذات حضور ملائم. كما تفتقر المدارس إلى الاختصاصيين في الخدمة الاجتماعية والإرشاد

التربوي والنفسي، الذين لهم دور مهم في معالجة مشكلات الطلاب السلوكية، وربط المدرسة بالمجتمع المحيط. هذه علاقة غير صحية؛ لأنها تحرم المدارس من الاستفادة من إمكانات وخبرات المجتمع المحيط بالمدرسة، وتحرم الطلاب من فرص نمو وتعلّم مهمة. ولا شك في أن توافر مدرسة في مجتمع محلي يعمل على تنوير المجتمع المحلي وتفقيهه بأمور الحياة أمر في غاية الأهمية".

وفي نهاية اللقاء، توجه منير بالشكر لزملائه على إسهاماتهم في هذا اللقاء، ملخصًا أهم الأفكار التي خرج بها اللقاء، وهي:

١ - تحقق توسع كبير في التعليم، فانتشرت المدارس في معظم مناطق البلاد، وزاد عدد المعلمين المحليين، وتوافرت بقدر مناسب التجهيزات التعليمية، وزادت مشروعات تطوير التعليم، وقلت معاناة الطلاب مقارنة بالأمس.

٢ - لم يرافق التوسع في التعليم آليات واستراتيجيات تحافظ على جودته، فقد تدهور مستوى أداء المعلمين، وتضخمت المدارس بأعداد كبيرة من الطلاب، وازدحمت الفصول الدراسية، وتدهورت المرافق المدرسية، فأصبحت المختبرات التعليمية غير كافية، والكتب المدرسية غير مكتملة، كما أن المصادر التعليمية لم تعدْ تلبي احتياجات الأعداد الكبيرة من الطلاب.

٣ - تتصف الإدارة المدرسية بالمركزية الشديدة التي تعكس طبيعة النظام التعليمي كله. كما أن معظم كوادرها لم تُعَدُّ إعدادًا منهجيًّا، ولم تدرب بصورة كافية للقيام بمهام الإدارة المدرسية.

٤ - يشكو المعلمون من كثافة المناهج ورداءتها، واكتظاظ الطلاب في الفصول الدراسية، وسوء ظروف العمل، وتفاوت الحوافز والامتيازات بين قطاع التعليم والقطاعات الأخرى. كما يشكون من عدم رغبة الطلاب في التحصيل الدراسي، قدر اهتمامهم بالهواتف النقالة والألعاب الإلكترونية والتسلية، غير مبالين بالتعليم.

٥ - يشكو الطلاب وأولياء أمورهم من كثافة المناهج الدراسية، ونقص التجهيزات المدرسية، وضعف كثير من المعلمين، ونقص الكتب المدرسية.

٦ - صار كثير من الطلاب كسولين ومهملين، وقد يصل الواحد منهم إلى الصف التاسع من دون أن يجيد، للأسف الشديد، أساسيات القراءة والكتابة.

٧ - لم تعدّ المناهج الدراسية تواكب التطورات المتسارعة في العالم، وتضم حقائق ومعلومات كثيرة لا تراعي مستوى المتعلّمين العقلي، ولا تتضمن أنشطة تحث المتعلّمين على التفكر والنقد والتحليل.

٨ - يقوم التعليم في مؤسساتنا التعليمية على الحفظ والاستظهار، ويشجع التعليم البنكي.

٩ - يقوم التقويم على طريقة واحدة هي الامتحانات الورقية. وبدلاً من تحسين العملية التعليمية، أصبح ليس أداة لترويع الطلاب فحسب، بل ليشمل أولياء أمورهم أيضًا.

١٠ - العلاقة بين المدرسة والمنزل غير إيجابية، وتقتصر على متابعة المشكلات السلوكية للطلاب، وعلى حضور اجتماعات مجالس الآباء والأمهات، التي لا تكون في العادة ذات حضور ملائم. كما تفتقر المدارس إلى تخصصات الخدمة الاجتماعية والإرشاد التربوي والنفسي.

كان هذا اللقاء متميزًا بالنسبة للمجموعة، فقد تعجبت من تدهور حال التعليم اليوم إلى هذا الحد، وحجم التحديات الكبيرة التي تواجهه، فلم يكونوا قد ناقشوا الموضوع من جميع جوانبه بهذا العـُمق من قبل؛ لذلك ارتأوا أن يلتقوا ثانية لمناقشة التحديات التي تواجه التعليم عامة. ولكن قبل ذلك رأوا حضور مؤتمر علمي ينظم في إحدى الدول المجاورة لمناقشة تحديات التعليم للاستفادة من خبرات باحثين آخرين تعرض تجارب دول أخرى مشابهة.

نسق الزملاء الستة فيما بينهم، وسافروا معًا لحضور المؤتمر، وتوزعوا الأدوار؛ بحيث يحضر كل منهم المحاضرات والأبحاث التي تتناول جانباً من جوانب تحديات التعليم، وعلى النحو الآتي:

منير: التحديات السياسية.

سند: التحديات الاقتصادية.

إلهام: التحديات العلمية والتقنية.

قائد: التحديات العلمية والتقنية.

مُهجة: التحديات الثقافية والاجتماعية.

عادل: التحديات التربوية والتعليمية.

تحديات التعليم

"إن الذين الجرأة على مواجهة الفشل
هم الذين يقهرون الصعاب وينجحون".
(مقولة مجهولة المصدر)

بعد أن عاد الجميع من السفر، نسق منير معهم لحضور اللقاء المخصص لمناقشة هذا الموضوع، ثم حدد مكان اللقاء وزمانه.

في يوم اللقاء، جلس الجميع حول طاولة الاجتماعات، وبدأ منير الحديث، فشكر زملاءه على الجهود التي بذلوها في حضور المؤتمر، والإعداد لهذا اللقاء، ثم أعطى مقدمة عامة، فقال: "لاحظنا خلال افتتاحية المؤتمر، والجلسات الرئيسة في المؤتمر أن كثيرًا من المفكرين يُجمعون على أن التعليم لم يعد أمرًا شخصيًّا ولا موضوعًا خدميًّا، بل أصبح مسألة أمن قومي؛ لأن التعليم السيء يضخ سنويًّا إلى المجتمع أعدادًا كبيرة من الخريجين غير المؤهلين. تلك الأعداد تتبوأ وظائف مهمة في الدولة والمجتمع. ونتيجة ضعف تأهيلهم، فإنهم يؤثرون سلبًا على الدولة والمجتمع بما يمسُّ الأمن القومي للبلاد. فالبلد الضعيف عادةً ما يكون عُرضة لأطماع الدول القوية، وهو أمر يمسُّ سيادتها وأمنها القومي. من جانب آخر، فإن دول العالم تحرص اليوم، على أن تسجل السبق في ميدان تنمية رأس المال البشري حتى يتسنى لها الحفاظ على تقدمها على الأمم الأخرى وقيادتها. فالتعليم الجيد يرفد المجتمع بكوادر مؤهلة تستطيع أن تُسهم في رفع جودة رأس المال البشري في البلاد، وبالتالي زيادة إنتاجية الأفراد، مما يعزز موقع البلد التنافسي، ويقوي من مكانتها بين الأمم".

بعد ذلك بدأ النقاش حول الموضوع.

التحديات السياسية

بادر منير بعرض التحديات السياسية، فقال: "تبين ليّ خلال المؤتمر أن بلدان العالم، ومنها بلادنا، تواجه العديد من التحولات السياسية العالمية المتمثلة في غلبة سياسة القطب الواحد، وشيوع العولمة، والتقارب بين الشعوب، وزيادة دور الأمم المتحدة في الأحداث الدولية. كما تبين أن العالم سيشهد تحولات كبيرة في المستقبل القريب تتمثل في تزايد تدخل بعض مراكز القوى الجديدة في صنع واتخاذ القرار السياسي العالمي والإقليمي".

وأضاف: "تعلّمون أن بلادنا، مثله مثل كثير من الدول النامية، يشهد تحولات سياسية عميقة تتمثل في توسع الممارسات الديموقراطية وما يرافقها من حوارات مكثفة لبناء البلاد، وفق معطيات جديدة. كما تسود المؤسسات التربوية حالة من الاستقطاب الحزبي تؤثر سلباً في سير العملية التعليمية. وفي تقديري فإن واقع الأحداث والتطورات السياسية المحلية والإقليمية والعالمية الراهنة، لها مضامين وأبعاد تربوية ليست بخافية على أي محلل تربوي حصيف؛ وقد برزت في المؤتمر بوضوح. وهذا يُلقي على نظامنا التعليمي مسئولية كبيرة تتمثل في أهمية إعداد جيل أكثر قدرة وكفاءة في التعامل مع تلك التحديات سواء على المستوى السياسي المحلي أم الإقليمي أم الدولي. هذه التحولات ينبغي أن تستوعبها التربية سواء في مناهجها الدراسية أم في الممارسات اليومية في النظام التعليمي أم في الأنشطة المدرسية".

التحديات الاقتصادية

بعد أن أكمل منير عرضه حول التحديات السياسية، طلب سند الحديث عن التحديات الاقتصادية، فقال: "يرى خبراء الاقتصاد الذين استمعت إليهم، أن كثيراً من البلدان تواجه، في المرحلة الحالية، مشكلات اقتصادية جمة، منها: معالجة العجز في الموازنة، ومواجهة تراجع إنتاج النفط، وتحقيق الأمن الغذائي، والحدّ من البطالة، وتوفير الكهرباء، وإصلاح البنية التحتية بخاصة الطرق والاتصالات، ومعالجة مشكلة ندرة المياه،

وتحقيق الكفاءة في استخدام الموارد الطبيعية المحدودة، والحدّ من الفساد. وهذه مشكلات تنطبق على بلادنا أيضًا".

وأضاف: "يتوقع الاقتصاديون حدوث تحولات اقتصادية كبيرة تتمثل في التحول من الاقتصاد المحلي والإقليمي إلى الاقتصاد العالمي، ومزيد من العولمة الاقتصادية الرأسمالية، مما سيؤدي إلى بروز عالم بغير حدود اقتصادية، فضلاً عن زيادة معدلات التجارة العالمية، وعالمية الإنتاج المتبادل، وسيطرة الشركات متعددة الجنسية، واتساع نطاق أنشطتها بشكل يؤدي إلى سرعة تحرك رؤوس الأموال، والمعلومات والمنتجات، وعناصر العمل بين دول العالم".

وأوضح: "كما أن بلادنا تواجه مشكلات اقتصادية إقليمية تتمثل في تذبذب وضع العمالة في المنطقة. علاوة على ذلك الركود الاقتصادي العالمي، وديون العالم الثالث التي ترهق موازناتها، وتحرير التجارة العالمية وما يترتب عليه من تحديات تواجه الاقتصاد الوطني، وتوقيع اتفاقية الجات، وضغوط المنظمات الدولية مثل البنك وصندوق النقد الدوليين لإعادة هيكلة اقتصاد الدول وفق رؤاهما والتي قد لا تكون مستوعبة لواقع مجتمعنا وتعقيداته".

واختتم قائلاً: "في رأيي، فإن هذه التحديات الاقتصادية المحلية والإقليمية والعالمية تتطلب من التعليم إعادة تنظيم نفسه بما يمكّنه من إعداد جيل مسلح بالمعارف والمهارات والقيم التي تؤهله للتعامل مع تلك التحديات باقتدار".

التحديات العلمية والتقنية

بعد ذلك عرضت إلهام التحديات العلمية والتقنية، فقالت: "من خلال اطلاعي على ما عُرض حول هذا الموضوع في المؤتمر، وجدت أن التحديات العلمية والتقنية تتمثل في الانفجار المعرفي الكبير في المعلومات، وفي ثورة التقنيات والاتصالات الحديثة. فلقد أصبح بإمكان المتعلّمين الحصول على معلومات من مصادر تقنيات المعلومات المتاحة اليوم؛ ما قد يغيب عن انتباه المعلمين أنفسهم".

وأضافت: "كما بيّن الباحثون، أن هذا أدى إلى انهيار مفهوم الزمن، حيث تتداخل الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل؛ بفعل التقنيات الحديثة، وتحول مفهوم الزمن من قيد إلى مورد، وانهار مفهوم الثبات أو الاستقرار، إذ إن التغير هو الثابت الوحيد في المستقبل. كما أن هناك تطورات هائلة في الإعلام ودوره، فالجيل القادم من تكنولوجيا الإعلام سوف يشكل طفرة من حيث قوة البثّ وكثافته، والقدرة على التقاط الصورة، وسوف تؤدي أجهزة الإعلام ووسائل الاتصال المتعددة دورًا أساسيًّا في نشر المعلومات".

وأشارت إلى أن الباحثين أكدوا على أنه: "من المتوقع في المستقبل القريب التحول من الإعلام إلى الاتصال، والتحول من العزلة إلى الاندماج والتكتل، والتحول من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي، والتحول نحو مزيد من البرامج المتخصصة، علاوة على تزايد استخدامات الإنترنت كوسيط إعلامي، وظهور ثقافة عالمية وضعف الثقافات المحلية".

وهنا طلب قائد، الذي شارك إلهام في الاطلاع على هذا الموضوع خلال المؤتمر، أخذ دوره في الحديث، فقال: "أكدت نتائج عدد من الأبحاث التي عُرضت في المؤتمر ظهور مؤشرات قوية على الطلاب، كبارًا وصغارًا، باتت تشغل حيّزًا كبيرًا من أوقاتهم كالتلفزيون بفضائياته المتنوعة، والإنترنت، وبرامج الجوال المتعددة، وبرامج الألعاب الإلكترونية، وغيرها من المؤثرات التقنية التي تستهلك أوقات المتعلّمين. ولقد أكد الباحثون أن جميعها تسهم في إهدار طاقات الطلاب وتصرِفهم عن المذاكرة وعن تحصيل المعرفة والتركيز عليها".

"كما وجدوا أن الطلاب يحصلون اليوم على معلومات وأفكار من تلك المصادر أكثر مما يستقونه من المدرسة، فلم يعُدّ المعلمون المؤثرين الوحيدين في تربية المتعلّمين".

وأوضح: " يتطلب هذا أن ينظر النظام التعليمي في استيعاب المناهج الدراسية تلك التطورات وتوظيفها، وتمكين الطلاب من المهارات اللازمة للتعامل مع فيض المعرفة، وكيفية استخدام تقنيات المعلومات والاتصالات لمواجهة هذا التحدي، دون أن يؤدي ذلك إلى تقوقعنا أو تخلينا عن ثقافتنا الوطنية".

التحديات الثقافية والاجتماعية

بعد أن أكمل قائد مداخلته حول التحديات العلمية والتقنية، تناولت مُهجة الحديث عن التحديات الثقافية والاجتماعية، فقالت: "وجد الباحثون أن التحديات الثقافية والاجتماعية تتمثل في ضرورة العمل على مكافحة الجهل، والحدِّ من الفقر والمرض، والتغلب على انتشار البطالة، وإنهاء كثير من القيم البالية مثل الثأر والجريمة، والحدِّ من الزيادة السكانية الكبيرة، وزيادة التحاق الفتاة بالتعليم، بخاصة في الريف".

مضيفة: "هناك تأثيرات داخلية إيجابية منها انتشار التعليم، وزيادة وعي الناس، وانتشار وسائل الاتصال الجماهيرية، مثل استخدام تكنولوجيا الاتصال (الإنترنت)، وأدوات التواصل الاجتماعي الفيس بوك وتويتر، ووسائل الاتصال الحديثة مثل الموبايل وغيرها من التقنيات الحديثة. من جانب آخر، ظهر شعور لدى بعض فئات المجتمع بالإقصاء والتهميش من فئات اجتماعية أخرى، وانتشار الفساد واستغلال الوظيفة العامة".

وعن رؤية الباحثين لدور الربيع العربي في ذلك، قالت: "وجد الباحثون أن الربيع العربي ساعد في كسر حاجز الخوف من الدولة ومؤسساتها لدى كثير من المواطنين، مما أدى إلى ضعف هيبة الدولة، وإلى حالة من النكوص الاجتماعي بالعودة إلى المكونات التقليدية للمجتمع (مثل القبيلة)، والاستقواء والاحتماء بها على الدولة، مما أضعف مبدأ سيادة القانون الذي يُعدُّ من أهم مقومات بناء الدولة الحديثة وتحقيق العدالة والمساواة بين الناس".

ورأت أن ذلك يتطلب من التعليم: "التأكيد على القيم والأخلاق الإسلامية التي تدعو إلى مواجهة العادات البالية مثل الثأر والجريمة. كما يتطلب غرس قيم الديموقراطية عند الناشئة، مثل: العدالة، واحترام كرامة الناس، واحترام الرأي والرأي الآخر، وترسيخ ثقافة الحوار، واحترام الحريات العامة وحقوق المواطنين، والإيمان بعدم احتكار الحقيقة، والإيمان بمبدأ سيادة القانون، والتعايش بين الناس؛ وأهمية الانتماء للدولة، والشعور بالمواطنة الحقيقية. وأرى أن هذا جزء من منظومة القيم التي يجب أن

نُكسبها للمتعلّمين ليتمكنوا من مواجهة التحولات الاجتماعية والسياسية التي تمرُّ بهما البلاد".

التحديات التربوية والتعليمية

كان آخر أشكال التحديات المطروحة هي التحديات التربوية والتعليمية، وهنا جاء دور عادل للحديث عنها، فقال: "أوضح الباحثون أن التحديات التربوية والتعليمية تتمثل في ظهور مفاهيم تربوية معاصرة، مثل: الفَهم المعاصر للذكاء بأنه عنصر ديناميكي، وشيوع المساءلة وضمان جودة التعليم مع التركز على جودة مخرجات التعلّم، والتربية القائمة على المدرسة، والتعلّم النشط، والمعايير التربوية، وأدوات التقييم المعاصرة، ودمج التقنيات في التعليم. كما ظهرت مفاهيم تربوية حديثة، مثل: التربية السكانية، والتعلّم مدى الحياة، والتربية الكونية، والعولمة، والتربية المستقبلية".

وعن ظهور العديد من الاتجاهات الحديثة في مجال التوظيف الاجتماعي للمدرسة أوضح أن الباحثين بينوا: "ظهور العديد من الاتجاهات الحديثة في مجال التوظيف الاجتماعي للمدرسة، والذي لا يتمّ إلا من خلال التركيز على تنمية قدرات الإنسان إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه من نمو وارتقاء. كما أصبح واضحًا، اليوم وأكثر من أي وقت مضى، أهمية التعليم في إعداد راس المال البشري لأي مجتمع".

وأضاف: "بناء عليه أستطيع القول: إن هذه التحديات تتطلب من قطاع التعليم استيعاب كل ذلك، سواء في المناهج الدراسية أم في اللوائح والأنظمة التربوية، أم في تدريب المعلمين عليها. ويتحمل مسئولية هذا الحال الذي وصل إليه التعليم في البلاد الجميع كل من موقعه: وزارة التربية والتعليم، والميدان التربوي ممثلاً بمديري المدارس والموجهين والمعلمين ، ثم أولياء الأمور، وأخيراً المجتمع ككل".

واستكمل حديثه قائلاً: "تتمثل مهمة التعليم في إرساء مقومات التنمية الذاتية للفرد من جانب، والكفاءة المجتمعية للمجتمع ككل من جانب آخر. كما أصبح واضحًا

اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، أهمية التعليم في إعداد رأس المال البشري لأي مجتمع".

تتأثر البلاد بتحولات سياسية عالمية عميقة مثل: سياسة القطب الواحد، وشيوع في الختام، توجه منير بالشكر الجزيل لزملائه على إسهاماتهم المتميزة في هذا اللقاء، ثم لخص أهم الأفكار التي خرج بها اللقاء، وهي:

١. العولمة، والتقارب بين الشعوب، وزيادة دور الأمم المتحدة في الأحداث الدولية. وداخليًّا: توسع الممارسات الديموقراطية، وحالة الاستقطاب الحزبي في المؤسسات التربوية. وهذا يتطلب من التعليم إعداد جيل مفكّر، يستطيع أن يتعامل مع تلك التحديات بجدية ومسئولية حتى يستطيع البلد أن يحافظ على استقلال قراره.

٢. تواجه البلاد تحديات اقتصادية كبيرة، مثل: إصلاح البنية التحتية من طرق وشبكة اتصالات وتوفير الكهرباء، ومعالجة شحة المياه، والحدّ من الفساد، وسداد الدين العام، ومعالجة العجز في الموازنة، ومواجهة تراجع إنتاج النفط، وتحقيق الأمن الغذائي. أضف إلى ذلك تذبذب وضع العمالة في دول الجوار، والركود الاقتصادي العالمي. وهذا يستدعي من التعليم إعداد جيل مبتكر يستطيع أن يتعامل مع تلك التحديات حتى يستطيع أن يعيش حياة كريمة.

٣. تواجه البلاد تحديات علمية تقنية هائلة تتمثل في الانفجار المعرفي وثورة التقنيات والاتصال؛ وهو ما أدى إلى انهيار مفهوم الزمن، وتحوله إلى مورد، وانهيار مفهوم الثبات أو الاستقرار. كما ظهرت مؤثرات قوية على الطلاب تصرفهم عن التعلّم مثل القنوات الفضائية المتعددة، والإنترنت، وبرامج الجوال، وبرامج الألعاب الإلكترونية. هذا يتطلب من التعليم إعداد جيل يستطيع أن يتعامل مع ذلك الانفجار المعرفي، والاستفادة من التقنيات الحديثة لإثراء تعلّمه.

٤. تواجه البلاد تحديات ثقافية واجتماعية عديدة، منها مكافحة الجهل، والحدّ من الفقر، والتغلب على انتشار البطالة، وإنهاء كثير من القيم البالية مثل: الثأر

والجريمة، والحدّ من الزيادة السكانية الكبيرة، واستكمال نشر تعليم الفتاة خاصة في الريف، وإعادة الشعور بالانتماء للدولة، والشعور بالمواطنة الحقيقية. وهو ما يستدعي من التعليم أن يسهم في إعداد جيل مفكّر يستطيع أن يتعامل مع تلك التحديات حتى يستطيع أن ينطلق للأمام.

٥. تواجه البلاد تحديات تربوية وتعليمية مثل: الفَهم المعاصر للذكاء بأنه عنصر ديناميكي، وضمان جودة التعليم، والتربية القائمة على المدرسة، والتعلّم النشط، والتعلّم المتمركز حول المتعلّم، والمعايير التربوية، وأدوات التقييم المعاصرة، والتركيز على جودة مخرجات التعلّم، والتقييم القائم على الأداء، والمساءلة في التعليم، ودمج التقنيات في التعليم. وهذا يتطلب من التعليم إدراج تلك المفاهيم في إدارة التعليم وفي المناهج الدراسية؛ بما يمكّن المتعلّمين من الحصول على تعلّم أفضل.

بعد أن استكمل منير استعراض ملخص تحديات التعليم، اتضح للمجموعة عِظم تلك التحديات، وتبينوا أن هذا الواقع الجديد يتطلب إعداد رأس مال بشري من نوع خاص، يكون قادرًا على ابتكار حلول جديدة في أصعب الظروف؛ وهذا النوع من الكوادر لا يمكن إعداده باستخدام الطرق المتبعة اليوم في مؤسساتنا التعليمية. لذلك قرروا عقد لقاء آخر لدراسة أفضل السُبل لمواجهة تلك التحديات.

مواجهة تحديات التعليم

"إذا كنت تعتقد أن التعليم مُكلف، فجرب الجهل".
(ديريك بوك)

بعد أن أكمل منير مشاوراته مع زملائه، دعا الجميع للمشاركة، وجلسوا حول طاولة الاجتماعات استعدادًا لهذا اللقاء المهم.

استهل منير الحديث باقتباس مقولة شهيرة:

"نستطيع أن نبني على الماضي حتى إن كان معيبًا، وحين ندرك ذلك، ونشخص العيوب بدقة، نستطيع أن نتوجه نحو المستقبل بدراية".

وأكد: "نعم نستطيع". ثم طرح مجموعة من التساؤلات لتوجيه مناقشات اللقاء، وهي:

١ - لماذا حققت كثير من دول العالم تقدمًا في نظامها التعليمي، على الرغم من أنها تواجه تحديات تكاد تكون مشابهة لتلك التي تواجهها بلادنا؟
٢ - كيف يمكن زيادة دافعية المتعلّمين للتعلّم، وتنمية تفكيرهم؟
٣ - كيف يمكن التخلص من الحشو في المناهج الدراسية؟
٤ - كيف يمكن ردّ الاعتبار لمهنة التدريس، بحيث يصبح المعلم صاحب رسالة؟
٥ - كيف يمكن إصلاح نظام الامتحانات، وإعادة الاعتبار للشهادة العلمية؟
٦ - كيف يمكن إصلاح العلاقة بين البيت والمدرسة؟

ثم أكد منير:

"نستطيع أن نتوصل إلى إجابات عن تلك الأسئلة، وليس بالضرورة معظمها، بالاستناد إلى كثير مما أنجزناه: توثيق طبيعة التعليم في

الماضي القريب، وتوثيق خبراتنا الدراسية في الخارج، وتحليل تحديات التعليم في بلادنا".

بعد ذلك استأذن زملاءه البدء بالحديث حول دور الحكومة في تحسين التعليم، فقال: "أرى أنه من الضروري أن يحتل التعليم موقع الصدارة في برنامج عمل أي حكومة. فالحكومة مُلزمة بأن توفر الإمكانات، وتضع الخطط والبرامج اللازمة للنهوض بالتعليم. وهنا أودّ أن أؤكد أن على وزارة التربية والتعليم – أي وزارة تربية وتعليم في العالم – أن تعمل في ثلاثة محاور رئيسة. الأول: تعميم التعليم، أي استكمال نشره في جميع أنحاء البلاد؛ فكما عرفنا من مناقشاتنا السابقة أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها الدولة في نشر التعليم، إلا أنه ما يزال هناك الكثير الذي يجب عمله لاستكمال هذه المهمة".

وأضاف: "أما المحور الثاني فهو الإنصاف في تقديم الخدمات التعليمية سواء بين الريف والمدينة، أم بين البنين والبنات، أم بين الأغنياء والفقراء. وكما عرفنا من مناقشاتنا سابقًا، مازالت هناك فجوة قائمة بين الريف والمدينة، وبين البنين والبنات، وبين الأغنياء والفقراء. وهنا أؤكد أن على الوزارة أن تضع خططًا جادة لمعالجة هذا الخلل. فالدول تقيس مستوى نجاح نظامها التعليمي في ضوء نجاحها في تقليص مثل تلك الفجوات".

وأشار إلى إن المحور الثالث يتعلق بـ: "تجويد التعليم، الذي يستدعي من الحكومة أن تضع برامجًا جادة تضمن جودة الخدمات التعليمية التي تقدمها. ونحن نرى بعض برامج تطوير التعليم في هذا السياق، لكنها محدودة الأثر".

وأوضح أن المسألة تتصل بالرؤية، فقال: "لا بد من أن يتبنى قادة التعليم في بلادنا رؤية واضحة حول ماذا يريدون من التعليم، وكيف سيحققون تلك الرؤية. وفي هذا السياق، يقول ستيفن كوفي: "ابدأ والنهاية في ذهنك"، بمعنى أن وضوح الرؤية أمر أساس للقادة".

بعدها تحدث قائد عن دور قادة التعليم في الميدان التربوي، قائلاً: "سأتناول دور قادة العمل التربوي في الميدان التربوي: المحافظات، والمديريات، والمناطق التعليمية، والمدارس. وفي رأيي، فإننا بحاجة إلى تعديل أساليب القيادة. فواقع الحال يشير إلى أن معظم القادة التربويين هم في الأساس لا يقومون بدور القائد التربوي، بل بدور الإداري، حيث يتركز عمل معظمهم في تسيير الأمور اليومية، ويفتقرون لرؤية بعيدة المدى. لذا فنحن بحاجة إلى إحداث نقلة نوعية في طبيعة عملهم بالتحول: من إداريي تسيير إلى قادة تطوير".

وعن دور المناهج الدراسية، تحدث سند، فقال: "توصلنا في مناقشاتنا السابقة إلى أن مناهجنا الدراسية تركز على الكم المعرفي وتهمل الكيف، وعندما حاوَلت أن تتجه نحو الاستقصاء، لجأت إلى منهجية لا تصلح سوى للدول المتقدمة، فهي لم تراع الظروف الاقتصادية والاجتماعية للبلد، ولا إمكانات المدارس. لذلك لا بد من أن ننظر في تبني مقاربة جديدة عند تصميم المناهج الدراسية، تعتمد على ما ناقشناه في أحد لقاءاتنا السابقة، حول مكونات عملية التعلّم. لقد صارت مسئولية المناهج التعليمية أكثر تعقيداً؛ حيث ينبغي أن تنمي لدى المتعلّمين: المعارف، ومهارات التفكير، والمهارات المعرفية، وعادات التفكير، والاتجاهات والقيم".

ثم أخذت إلهام الحديث، وتناولت دور المعلمين، فقالت: "نجد المعلمين اليوم، تُسيّرهم الكتب الدراسية المثقلة بالحقائق والمعارف، وهم بذلك ينسون ما تعلّموه في كليات التربية ومعاهد المعلمين حول التفكير وتنميته، وأساليب تنمية الإبداع لدى الطلاب. من جانب آخر، تعلّمون أن التعليم في الخارج يسعى إلى تفجير طاقات المتعلّمين وتنمية تفكيرهم وإبداعاتهم إلى أقصى ما تسمح به قدراتهم. وهذا يتم من خلال أساليب التعلّم النشط".

ثم ذكّرت بالحكمة التربوية الشهيرة:

"المعلم الضعيف يلقّن،

المعلم المتوسط يفسّر،
المعلم الجيّد يشرح بالأدلة والبراهين،
المعلم المتميّز يُلهم".

وأوضحت أن: "المعلمين بحاجة إلى تطبيق طرق التعليم والتعلّم التي تُلهم المتعلّمين، فتنمّي جوانب العقل المختلفة لديهم، بما يؤهلهم للتعامل الكفؤ مع متطلبات هذا العصر الذي يتميز عن العصور السابقة بالغموض، والتعقيد، والمنافسة الدولية الشديدة. فلم يعدّ مجديًا، في القرن الحادي والعشرين، عصر السباق العالمي نحو الريادة، لم يعدّ مجديًّا حشو عقول الطلاب بكم معرفي قديم، بل لا بد من البحث عن مقاربة جديدة – كما ذكر زملائي سابقًا – مقاربة تتجاوز النظرة الحالية الضيقة التي ترتكز على تدريس الحقائق والمعلومات".

بعدها تحدثت مُهجة متناولة دور الطالب، فقالت: "نعم، يشير واقع الحال اليوم، إلى أن نظامنا التعليمي الذي يركز فقط على المعرفة بأنه لا يلبي احتياجات المتعلّمين. وفي هذا السياق، اسمحوا لي أعرض عليكم تصنيفي لطلاب اليوم. نحن اليوم، أمام أربعة أنواع من المتعلّمين. الأول: ميسور ماديًّا، وهذا يتصف بانخفاض دافعيته للتعلّم إذا ما حصرنا له الغرض من التعليم في الحصول على وظيفة؛ لأنه ببساطة ليس بحاجة إليها أو أنها مضمونة بالنسبة له. وهذا النوع من المتعلّمين قد يقع –أيضًا– في مشكلات سلوكية مثل العدوانية والمشاغبة، أو الاستهتار بالتعلّم والمدرسة، فهو يقضّي وقته في المدرسة ليس إلا. والثاني: محبط؛ لأنه وجد أن مَن سبقه ممن حوله لم يحصل على الوظيفة التي كان يطمح إليها، أو لم يتمكن من الحصول على أي وظيفة، وبالتالي ما جدوى التعليم بالنسبة له. وهذا النوع من المتعلّمين –أيضًا– قد يقع في مشكلات سلوكية مثل العدوانية والمشاغبة وعدم الرغبة في التعلّم (يريد شهادة فقط). والثالث: غير متفائل كثيرًا بالمستقبل، لكنه في الوقت نفسه يضع احتمال تحسن الأحوال، فيبذل الحد الأدنى من الجهد الذي يمكّنه من النجاح فقط. وهذا النوع من المتعلّمين يمتلك دافعية الحد الأدنى،

وقد يقع في مشكلات سلوكية مثل العدوانية والمشاغبة بين حين وآخر. والرابع: لديه مساحة من التفاؤل بالمستقبل وبقدرته على صنع مستقبل أفضل له ولأسرته، وذلك نتيجة لعوامل كثيرة منها الإصرار والمثابرة، ودعم وتشجيع الأسرة والأقران. وهؤلاء قلة، وهم الذين يواصلون مسيرة التعلّم بحماس شديد، ويستطيعون التغلب على خلل النظام التعليمي القائم. وهذا النوع من المتعلّمين يمتلك دافعية داخلية كبيرة قادرة على تجاوز كل محبطات النظام التعليمي الحالي ومواصلة التعلّم، ويحرص على ألا يقع في أي مشكلات".

وأضافت: "باختصار، اقول: إن طلاب اليوم يختلفون عن طلاب الأمس الذين كانوا يتصفون بحُب الاستطلاع، والمثابرة، والعمل الجماعي. لذلك نحن بحاجة إلى تطبيق أساليب تدريس جديدة لتشجيع الطلاب على التعلّم الحق".

وهنا تقدّم عادل، وتحدث عن دور التقويم، فقال: "تعلّمون أنه يغلب على طرق التقويم في بلادنا استدعاء الحقائق والمعلومات من الطلاب. فكيف نطلب منهم القدرة على التفكير في الوقت الذي لا نطلب منهم في الامتحانات سوى التذكر!؛ نحن نعلم أن الطلاب بطبيعتهم أذكياء يبحثون عمّا تدور حوله الامتحانات، ومن ثم يصبح ذلك محل تركيزهم خلال مذاكراتهم".

وأوضح: "وكما تعلّمون، كانت نتائج الامتحانات، في الماضي، تعبر بصدق عن مستوى الطلاب، ولم يكن الغش شائعًا. لذلك نحن بحاجة إلى إعادة الاعتبار للعملية الامتحانية".

ثم ذكّر بالعبارة التربوية الشهيرة: "إذا صلح التقويم، صلح التعليم".

وأنهى حديثه متفقاً مع بقية زملائه – بالدعوة إلى تبني مقاربة جديدة تُصلِح حال التعليم ومنه التقويم – إذا ما أُريد إصلاح ما أفسدناه في الماضي.

بعد أن استكمل الجميع عرض آرائهم، شكرهم منير جميعًا، وقال: "من الواضح أننا أمام واقع جديد يفرض على التربويين والحكومة والمجتمع، إعادة النظر في فهمنا لما

ينبغي أن يُعلّم في مؤسساتنا التعليمية. وهنا لا بد من تبني مقاربة جديدة للنظر فيما نُعلم وكيف نُعلم".

ثم لخص مناقشة الجزء الأول من هذا اللقاء في الآتي:

١ - ينبغي أن تعمل الحكومة على تجويد التعليم، من خلال تبني رؤية واضحة لذلك.

٢ - ينبغي على القادة التربويين، الانتقال من إدارة التسيير، إلى قيادة العمل التربوي، ضمن رؤية واضحة.

٣ - ينبغي على مناهجنا الدراسية أن تركز على ما هو أهم من الحقائق، وبالذات ما يتصل بتحسين تعلّم الطلاب وتنمية تفكيرهم.

٤ - ينبغي أن نرقى بأساليب تدريسنا، من التلقين إلى تنمية التفكير والإبداع والإلهام.

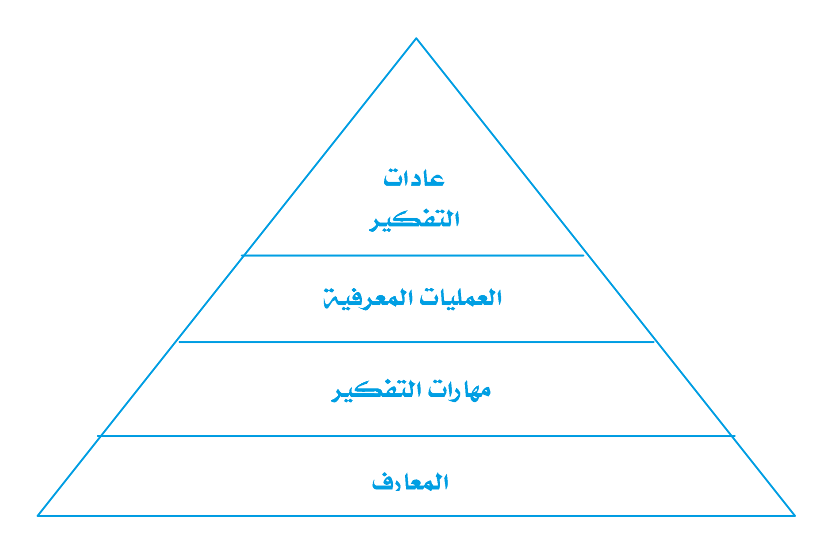
٥ - ينبغي تلبية احتياجات الطلاب المتمثلة في تنمية تفكيرهم، حتى يستطيعوا مواجهة تحديات العصر.

٦ - ينبغي أن يدعم التقويم عملية التعلّم، بالانتقال من استدعاء الحقائق إلى قياس نمو التفكير.

بعدها أطْرق قليلاً، ثم طلب من سند أن يعرض على المجموعة بالتفصيل مكونات العملية التعليمية، التي أشار إليها في لقاء سابق.

سُعد سند بهذا الطلب، ثم بدأ حديثه قائلاً: "لم تعدّ العملية التعليمية، كما تعلّمون، مقتصرة على تنمية المعارف، بل أصبحت تشمل كلاً من: المعارف، ومهارات التفكير، والعمليات المعرفية، وعادات التفكير، فضلاً عن الاتجاهات والقيم التي تؤثر في اكتساب جميع تلك المكونات".

ثم قام سند من مقعده، ورسم العلاقة بين تلك المكونات كما في الشكل الآتي:



وواصل حديثه: "كما ترون فإن العلاقة بين تلك المكونات هرمية، حيث تقع المعارف في أدنى مستويات التفكير، تليها مهارات التفكير، ثم العمليات المعرفية، فعادات التفكير، وتحيط بها جميعاً الاتجاهات والقيم".

واستعرض آراء عدد من العلماء، فقال: "هناك من يرى من العلماء أن أحد الأسباب الرئيسة لفشل أنظمة التعليم في العالم هو أن التربويين يبدؤون بالأمور التجريدية عبر المواد المطبوعة واللغة اللفظية، بدلاً من الأفعال والسلوكات الفعالة مثل عادات التفكير المنتج. ويضيف آخرون أنه يمكن أن يعزى انخفاض قدرة الطلاب على الفَهم إلى عادات التفكير السيئة التي يتبعها الطلاب. أما من منظور المناهج، فالمشكلة تكمن في أن خبراء المناهج يبدؤون بالأدنى مرتبة وهي الحقائق، بينما المفترض البدء بتعليم الأعم الذي يشكل الإطار العام للمعرفة، وهي عادات التفكير المنتج، وهنا يكمُن سر النجاح، الذي ينبغي أن نركز عليه".

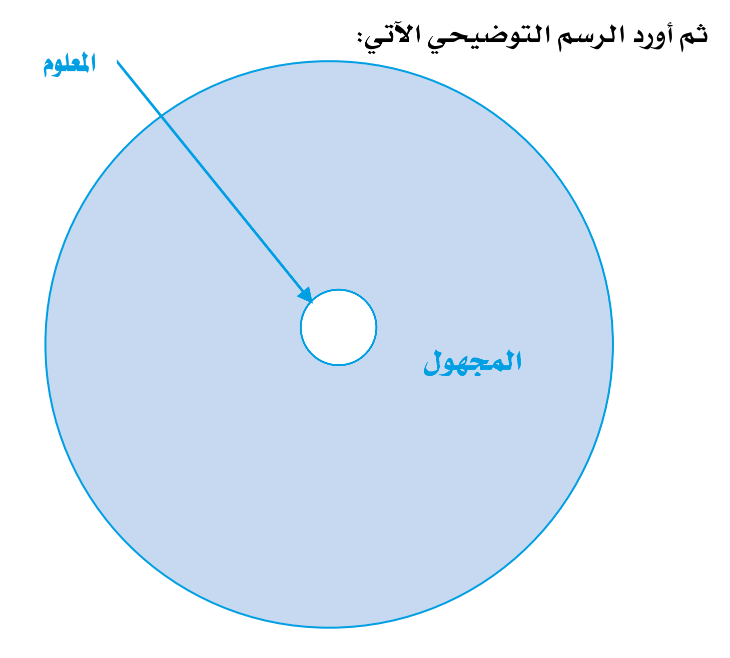
شكر منير "سند" على هذا التوضيح، وأضاف: "الآن لدينا أساس يمكن أن تنطلق منه رؤية أي حكومة لتحسين التعليم وتجويده، ينطلق هذا الأساس من تنمية عادات

التفكير لدى المتعلّمين؛ بصفتها سلوكات عقلية ذكية ينبغي غرسها في عقول المتعلّمين حتى تصبح عادات لديهم، لإيقاظ عقولهم وتنشيطها وتوجيه اهتمامهم لاكتساب معارف جديدة".

وأوضح: "ذات مرة، سمعت زميلنا سعيد، أستاذ الفلسفة في الجامعة، المتخصص في نظرية المعرفة، يقول: إن الإنسان يعيش بأمان واطمئنان فيما سماه دائرة المعلوم أو بقعة ضوء الإنسان، لكن عندما يخرج من محيطها فإنه يقابل المجهول، وهنا يصبح عاجزًا عن التّصرف، وقد يلجأ إلى استخدام التفكير الخرافي أو التفكير بالمحاولة والخطأ. لذلك يأتي دور عادات التفكير المنتج لمساعدة الإنسان على توسيع دائرة المعلوم لديه (أو بقعة ضوئه) بما يمكّنه من التصرف بعقلانية، ويكون بذلك أكثر كفاءة وطمأنينة في الحياة، مؤكداً أنه كلما اتسعت دائرة المعلوم لدى الإنسان كان ذلك أفضل له ولمجتمعه".

واقترح منير أن بالإمكان الاستعانة بزميلهم سعيد في لقاء قادم إن شاء الله إذا رأت المجموعة ذلك.

ثم أورد الرسم التوضيحي الآتي:



وهنا بادر بالحديث قائلاً: "لا شك في أن عادات التفكير مهمة ليس للمتعلّمين فقط، لكن حتى لعامة الناس؛ كونها تشبه مشاعل المعرفة لاكتشاف المجهول، فهي تفتّح العقول لاكتساب المعرفة، وتعمل بالتالي على تنميتها. وإذا ما قبلنا عادات التفكير مدخلاً لحلِّ مشكلات التعليم، فهي ستوفر لنا إطارًا مرجعيًّا مهمًا لرؤية تربوية يفتقر إليها كثير من قادة العمل التربوي في الميدان. لكن ما الجديد الذي تمثله عادات التفكير المنتج!؟".

عندها علّقت مُهجة: "أرى أن كثيرًا من الأمور يمكن إصلاحها بسهولة إذا توافرت الرؤية والإرادة، مثل تعديل المناهج الدراسية، وتحديث طرق التدريس، وتطوير نظام الامتحانات؛ لكن المهم هو كيف نعزز دافعية التعلّم لدى المتعلّمين؛ فالمتعلّمون اليوم، كما اتفقنا، يتصفون بدافعية ضعيفة، وبالكسل المعرفي، ولا يبالون بالدراسة كثيرًا. لذلك أرى أن الجديد في الأمر، هنا، هو تنمية عادات التفكير لديهم".

وأضافت: "في الحقيقة، لقد تبين أن المفكّرين الفاعلين يكتسبون خصائص أمكن تحديدها ومعرفتها، وقد تمَّ بالفعل تحديد مثل تلك الخصائص لدى أفراد ناجحين في مختلف مناحي الحياة: علماء، وأطباء، ومهندسين، ومعلمين، ورجال مال وأعمال، ورياضيين، وفنانين، ومتعلّمين، وأولياء أمور، وغيرهم. وهو ما سميناه هنا عادات التفكير".

وتابعت حديثها: "تشبه عادات التفكير الوقود اللازم لتحريك عقول المتعلّمين نحو عملية التفكير والتعلّم. ونستطيع أن نستدل على ذلك بسهولة من مسمياتها، وهي التي تشمل: حُب الاستطلاع، والمثابرة، والقدرة على التساؤل، والتحكم بالتهور، وحُسن الإنصات، وغيرها من العادات التي تنشط العقل وتوجهه نحو مزيد من التعلّم".

وهنا تدخل منير: "قد أكون أتعدى على تخصص زميلتنا مُهجة، لكن لتسمح لي هذا اليوم".

هزّت مُهجة رأسها موافقة على إعطائه الحديث، فقال: "فعلاً، لقد أظهرت نتائج البحث أن الأفراد الناجحين، في مختلف مناحي الحياة، يظهرون سلوكات وتوجهات

معينة، تتمثل في خصائص عقلية معرفية وشخصية، سماها بعض علماء النفس والتربية "عادات العقل". وسماها آخرون بـ "عادات الفكر" أو "عادات العقل المنتجة". ونسميها هنا "عادات التفكير المنتج". والهدف من تسميتها عادات التفكير المنتج، هو التفريق بينها وبين عادات العقل الروتينية، مثل تنظيف الأسنان، وشرب القهوة، والرياضة البدنية؛ وكذلك عادات العقل السلبية، مثل: التدخين، أو النوم مباشرة بعد الأكل، أو النميمة. وننسبها هنا للتفكير وليس للعقل؛ لأن الاستعداد العقلي متماثل عند معظم الناس، أما التفكير فيختلف من شخص لآخر، بحسب الظروف المحيطة بالشخص. وكذلك سُميت عادة بغرض التأكيد على أهمية التدرب عليها لتصبح عادة إيجابية عند الفرد؛ تدفعه للرغبة والقدرة على التعلّم واكتساب المعرفة. ونفهم "عادات التفكير المنتج" بأنها تلك الأدوات التي ينبغي أن يكتسبها المتعلّمون وينموها ليتمكنوا من اكتساب المعرفة وإنتاجها. ويختلف مسمى وعدد عادات التفكير المنتج من عالم لآخر، فمثلاً عددها خمس عند مارزانو، وست عشرة عند كوستا وكاليك".

وجاء دور إلهام في الحديث، فقالت: "إذا ما تبنينا عادات التفكير المنتج مدخلاً في التربية، فنكون بذلك قد قضينا على مشكلة التعليم التلقيني، أو التعليم البنكي، حيث إن عادات التفكير المنتج تتطلب انهماك المتعلّمين في العملية التعليمية انهماكًا حقيقيًّا حيث يكونون نشطين عند اكتساب المعرفة وتنميتها. "ألا توافقوني، أننا نكون بذلك قد قدمنا حلاً حقيقيًّا للمشكلة!؟".

رد الجميع بالإيجاب.

ثم جاء دور عادل في الحديث، فقال: "أستطيع أن أضيف إلى ما قيل اليوم، بأننا ينبغي أن ننظر إلى عادات التفكير المنتج بوصفها أنماطًا ذكية من التفكير والتصرفات؛ تظهر عند مواجهة المشكلات والأزمات في الحياة. وهي العادات التي يعكف المربون في الدول المتقدمة، على تزويد المتعلّمين بها ليصبحوا أكفاء في حل المشكلات، واتخاذ القرارات، والتواصل الفعال مع المجتمع؛ علاوة على تعلّم كيفية العيش بنجاح مع التغير السريع

الذي نعيشه في عصرنا الحالي. كما أن هذه العادات تحقق النجاح في الدراسة، والعمل، والحياة على السواء".

وتابع: "وبذلك نكون -أيضًا- قد حللنا مشكلة التقويم الحالي، من خلال التركيز على عادات التفكير المنتج. فالمعلمون والنظام التربوي بصفة عامة، سيعمل على غرسها عند المتعلّمين، ومن ثم سيضع أدوات التقويم المناسبة لضمان معرفة مدى تحقيقها".

عندها، صمت منير قليلاً، ثم قال: "يبدو أننا إذا ما تبنينا عادات التفكير المنتج لتكون أساس رؤيتنا لتحسين التعليم وتجويده، سنكون بذلك قادرين على التغلب على كثير من المشكلات والتحديات التي تواجه نظامنا التعليمي، ونكون كذلك قد أجبنا عن معظم الأسئلة التي طرحناها في بداية هذا اللقاء".

وفي الختام، لخص منير النقاش قائلاً: "الفكرة من بلورة عادات التفكير المنتج بالصورة التي نراها نحن، هي أن التفكير يتطلب من الفرد (المتعلّم) أن يُشغّل عقله بطريقة مختلفة عن الكيفية التي يشغل بها عامة الناس عقولهم، أو مَن لا يستخدمون عقولهم بطريقة فعّالة، حيث إن طريقة تشغيل العقل بطريقة فعالة تتطلب من الفرد التركيز في الموضوع محل التفكير الذي يتطلب بدوره اكتساب عادات التفكير المنتج. وكلما درّب الإنسان نفسه على تلك العادات، صار أكثر قدرة على التعلّم والتفكير، وبالتالي أمكنه اكتساب معارف جديدة. ومن هنا تبرز أهميتها لأي نظام تربوي، ودورها المحوري في إذكاء عقول المتعلّمين نحو التعلّم والتفكير".

ونظرًا لأهمية عادات التفكير المنتج، التي تُعدُّ من الرؤى الجديدة في التربية وعلم النفس، ونظرًا لدورها المحوري في عملية التعلّم وتنمية التفكير، فقد اتفق الزملاء الستة على الجلوس مع زميلهم سعيد لمناقشة طبيعة تلك العادات بوصفه متخصصًا في هذا الموضوع.

عادات التفكير المنتج

مقاربة جديدة في التعليم وتنمية التفكير

"ينتمي المستقبل إلى أولئك الذين يعدون له اليوم".
(مالكوم اكس)

تواصل منير مع زميلهم سعيد أستاذ الفلسفة المتخصص في نظرية المعرفة، وطلب منه مساعدة المجموعة في التوصل إلى فَهم أعمق لعادات التفكير المنتج. رحب سعيد بهذا الطلب، وتمَّ تحديد موعد اللقاء.

وفي يوم اللقاء، زارت المجموعة "سعيد" في مكتبه في مكتبه وشكرته على تخصيص بعض من وقته للجلوس معهم لمناقشة هذا الموضوع المهم.

رحب سعيد بزملائه، وحياهم على اهتمامهم بهذا الموضوع المهم، وقال: "أعلم أنكم متخصصون في شئون التربية والتعليم، وأن هذا الموضوع لا يفوتكم، ولا أعتقد أن إضافتي لما عندكم ستكون كبيرة، لكن على أي حال أشكركم على هذه المبادرة، ودعونا نتشارك معارفنا حول هذا الموضوع كل من زاويته".

ثم بدأ بعرض مقدمة عامة حول التفكير، فقال: "نعلم جميعاً أن التفكير هو مجموعة التفاعلات التى تتم داخل عقل الإنسان بصوره مستمرة، محاولة منه لفهم الواقع أو تحليله أو حل مشكلاته أو محاولة التوقع بما سيحدث في المستقبل. والعقل هو آلة التفكير عند الإنسان، وله أن يستعمله أو يهمله، فوظيفته التفكير".

وأضاف: "نعلم –أيضًا– أن طبيعة العصر تقتضي إعمال العقل بصورة أكبر من ذي قبل؛ وعليه فإن مهمة المجتمع هي مساعدة أفراده على استخدام عقولهم بصورة فعالة،

وهذه تتطلب بدورها تفعيل العقل وتنشيط عملياته، أي إعمال العقل؛ ممّا يقتضي تحديد مواد إعماله وتشغيله، فطالما أنه كذلك فهو يحتاج إلى وقود".

وأوضح: "هذا الوقود هو عادات التفكير المنتج التي يحتاج الفرد أن ينميها، ليطوّر عمليات العقل وسرعته وتنظيمه، ويتمكن بالتالي من مواجهة مواقف ومشكلات تتطلب حلاً ومعالجة. وبذلك يكتسب الإنسان المفكّر صفات خاصة؛ ولهذا فإن المفكرين يتصفون بخصائص أو سلوكات معينة نسميها عادات التفكير المنتج، لذلك فإن مَن يرغب في السير في طريق المفكّرين والدخول في عالمهم الرحب، عليه أن يكتسب عادات التفكير المنتج، وأن يحرص على شحنها بالوقود اللازم لتنميتها بالتدرب عليها باستمرار".

واستطرد: "عادات التفكير المنتج ليست مكملات النشاط العقلي، بل هي أدواته الرئيسة أو مسببات التفكير، فعندما يفتقر إليها الشخص فإنه يحرم عقله من الأدوات المناسبة للتفكير والتعلّم. وعندما لا ينميها بشكل جيد؛ فإنها لا تنتج تفكيراً جيدًا".

وأردف: "السؤال الآن هو: هل كل الناس بحاجة إلى أن تفكّر؟ الإجابة عن هذا السؤال هي حتمًا بالإيجاب، نعم كل الناس بحاجة إلى أن تفكّر وتفكّر، وأن يفكّروا باستمرار؛ لأن تحديات العصر تشكل دافعًا مهمًا أمام الأفراد والمجتمعات للتفكير. لقد أصبحت المجتمعات اليوم بحاجة إلى كل فرد فيها لأن يفكر حتى يستطيع أن يُسهم في نهضة وطنه، ولم يعُد هذا العصر عصر النخب التي تقود المجتمع. المنافسة الدولية فرضت اليوم واقعًا جديدًا يتطلب من كل مجتمع أن يزود جميع أفراده بكل متطلبات التفكير حتى يستطيع أن يعزز أمنه القومي".

ثم أورد مقولة كوستا، التربوي المتخصص في عادات التفكير المنتج، التي تقول:

" يُسبب إهمال استخدام عادات التفكير المنتج الكثير من القصور في نتائج العملية التعليمية".

طبيعة عادات التفكير المنتج

وعن طبيعة عادات التفكير المنتج، تناول قائد الحديث، معربًا عن سعادته بما ذكره سعيد، فقال: "نعم، تجربتنا في التربية تشير إلى أن امتلاك الفرد عادات التفكير المنتج القوية يُسهم في توجيه انتباهه وتركيزه نحو تعلّم خبرات التعلّم الجديدة، فهي توجه كل شيء يتعلّمه. أما عادات التفكير المنتج الضعيفة – التي لا يتم تنميتها بصورة جديدة – فتؤدي إلى تعلّم ضعيف. ولا يمكن امتلاك عادات التفكير المنتج القوية إلا من خلال التدرب المستمر عليها".

وأوضح أن عادات التفكير المنتج: "تشكل الأدوات الموجهة لعمل العقل وترتب أولوياته، فأي شخص لا بدّ من أن يمتلك أدوات عقلية للتفكير في مجريات الأحداث. ولقد رأينا في الخارج توافر برامج تدريبية تساعد الأفراد على امتلاك عادات التفكير المنتج، بدءًا من رياض الأطفال، ومرورًا بمراحل التعليم العام، وحتى التعليم الجامعي. وهي تسمو فوق جميع الأشياء المادية التي يتعلّمها الطلاب في المدارس، فهي مكتسبات تُميز مَن يَصِلون إلى القمة في أدائهم في جميع مواقع الحياة (منازل ، ومدارس، وشركات، وحتى الملاعب)".

مشيرًا في هذا السياق إلى مقولة مارزانو – صاحب فكرة أبعاد التعلّم:

"تؤدى عادات التفكير الضعيفة عادة، إلى تعلّم ضعيف بغض النظر عن مستوانا في المهارة أو القدرة".

عادات التفكير المنتج والذكاء

ثم تحدثت مُهجة، موضحة العلاقة بين عادات التفكير والذكاء، فقالت: "مثّل تغير النظرة إلى الذكاء من كونه نتاج عوامل وراثية غير قابل للنمو، إلى أنه شيء قابل للزيادة والنمو، نقلةً نوعيةً في تفكير علماء التربية وعلم النفس والمهتمين بالتربية والتعليم حول العالم. وهو ما فتح الباب للتوصل إلى ما سميناه " عادات التفكير المنتج ". والتي تُعدُّ، بحق، أهم الأدوات العقلية لتنمية الذكاء. ويمكن، بوساطتها، للفرد أن ينمي

ذكاءه مدى الحياة. من هنا يمكن القول: إن جميع الناس أذكياء إذا ما دُربوا بصورة سليمة؛ حيث يمكن لعادات التفكير المنتج أن تنمي الذكاء؛ لأن الذكاء يمكن أن يُتعلّم وينمو بمقدار التفاعلات التي يجريها الفرد مع نفسه ومع البيئة التي تحيط به، والآخرين؛ فالدماغ يكوّن مزيداً من الارتباطات بين خلاياه، ويطور نفسه كلما أتيحت له فرص التدريب".

واستطرد: "لقد غيرت عادات التفكير المنتج، المفهوم القديم للممارسات التربوية التقليدية، التي كانت تركز على إكساب الطلاب معلومات صرفة، وأصبح الفَهم الجديد للذكاء يركز على نوع السلوك الذي يبديه الطلاب عندما لا يعرفون الإجابة الصحيحة، وحتى عندما يعرفونها. فالذكاء بمفهومه الجديد يركز على بناء المتعلّمين موقفاً نقدياً تجاه المعرفة والحياة".

عادات التفكير المنتج

هي أدوات عقلية تنير عقل المتعلّم؛ بما يمكّنه من التعلّم وتنمية التفكير. فمن يمتلك تلك العادات يمكنه أن يطور - بصورة مستمرة - قدراته العقلية، ويحقق درجة عالية من القدرة على النفاذ إلى جوهر الأشياء.

عادات التفكير المنتج والمنهج المدرسي

وعن علاقة المنهج المدرسي بعادات التفكير المنتج تحدث سند قائلاً: "ينبغي أن تعمل التربية، من خلال المنهج المدرسي، على استثمار طاقات المتعلّمين العقلية وتوظيف كل الظروف المحيطة، والمواد والأدوات من أجل فَهم إمكانات جسمه وعقله وحواسّه، وإعمال الذهن للوصول إلى اكتساب المعرفة المنشودة. فإذا ما أردنا تنمية ذكاء المتعلّمين، وإيصال عقولهم إلى غايتها، وإلى مستوى الإبداع والابتكار؛ فإن علينا أن ندرّبهم على اكتساب

عادات التفكير المنتج التي تساعد على إيقاظ عقولهم وتفعيلها، ليصبحوا مستعدين بصورة أفضل للحياة المدرسية والحياة العامة".

مستشهداً بالمقولة اليابانية:

"تعيش، معظم الدول على ثروات توجد تحت أقدامها تنضب مع مرور الزمن، أما نحن فنعيش على ثروة فوق أرجلنا، تزداد وتعطي بقدر ما نأخذ منها".

وواصل حديثه: "على الرغم من اختلاف عدد ومسميات عادات التفكير المنتج عند العلماء، إلا أنها متشابهة في مضمونها بدرجة كبيرة. فهي تؤكد، إلى حد كبير، على: حُب الاستطلاع، والمرونة في التفكير، والمثابرة والتصرف المنطقي، والإقدام، وصنع القرارات".

وعن الفارق بين عادات التفكير المنتج ومهارات التفكير، تحدثت إلهام، فقالت: "يجدر بنا أن نفرق بوضوح بين عادات التفكير المنتج ومهارات التفكير؛ كون عادات التفكير المنتج أكثر عمومية، بينما مهارات التفكير أكثر خصوصية، حيث إن عادات التفكير المنتج أعلى في الهرم المعرفي من مهارات التفكير. كما أن عادات التفكير المنتج تنير عقل المتعلّم لتطبيق مهارات التفكير والانشغال في التفكير المثمر. فحتى يتمكن الفرد من ممارسة مهارات التفكير يجب أن يمتلك حُب الاستطلاع، والمثابرة، والقدرة على التساؤل، وتقليل التهور، وحُسن الإنصات، وغيرها من عادات التفكير المنتج، التي تنير طريقه، وتحثّه على التفكير والبحث؛ وبذلك نجد أن عادات التفكير المنتج تتحكم في طاقة التفكير وتنظم عملياته".

وأضافت: "من خبرتي في التدريس، وجدت أن إهمال استخدام عادات التفكير المنتج، يسبب الكثير من القصور في نتائج العملية التعليمية؛ فعادات التفكير المنتج ليست امتلاك المعلومات، بل توجيه الاهتمام لاكتسابها، فهي نمط من السلوكات الذكية، يقود المتعلّم إلى إنتاج المعرفة، وليس استذكارها أو إعادة إنتاجها على نمط سابق".

واستدركت: "لكن لا بد أن نركز في حديثنا على عادات التفكير المنتج الأساسية، وأن نكتفي بقائمة مناسبة منها، ولا ننجر لرصد كل ما ذكر العلماء من قوائم عادات التفكير. كما ينبغي أن نفرق بين عادات التفكير المنتج الأولية، وعادات التفكير المنتج العليا. إذ إن عادات التفكير المنتج الأولية هي التي توجه اهتمام المتعلّمين وتفكيرهم لاكتساب المعرفة في مراحل العمر المبكرة؛ أما عادات التفكير المنتج المتقدمة، فهي التي يحتاجها المتعلّمون بعد اجتيازهم المرحلة الابتدائية".

وعند هذه النقطة اقترح منير على زملائه الربط بين قوائم عادات التفكير المنتج، أو عادات العقل التي توصل إليها علماء بارزون، وبين نتائج ما توصلوا إليه في مناقشاتهم الطويلة السابقة، وبالذات نتائج رصدهم مميزات التعليم في الماضي، وما توصلوا إليه حول خبراتهم الدراسية في الخارج، وكذلك نتائج تحليلهم لميزات التعليم في الخارج.

وبعد أن وافق الجميع على الفكرة، تقدم عادل ولخص جزءاً من مناقشات المجموعة السابقة ذات الصلة، فقال:

"أذكر أننا توصلنا في رصدنا لميزات التعليم في الماضي إلى أربعة استنتاجات مهمة، اكتسبها المتعلّمون في الماضي، وكان لها تأثير كبير على نجاحهم، وهي:

١ - حُب الاستطلاع، وتحديداً الرغبة الشديدة في اكتساب المعرفة.
٢ - المثابرة، وتمثلت في جد المتعلّمين واجتهادهم.
٣ - التفكير الجماعي، والذي تمثل في المذاكرات الجماعية والعمل الجماعي.
٤ - التحكم في التهور، الذي اكتسبوه خلال الدراسة الجامعية وبالذات خلال الدروس العملية".

وإلى الاستنتاجات التي لخصها عادل، أضاف منير عادات مكتسبة أخرى، قائلاً: "من خبرتي الشخصية عن الدراسة في الخارج، والتي تتشابه كثيراً مع خبراتكم على ما أظن، يمكن أن أسجل ثلاث عادات مهمة اكتسبتها، وهي:

١ - حُسن الإصغاء (أثناء العمل الجماعي مع أفراد متنوعين معرفيًّا وثقافيًّا).

٢ - التفكّر، وفيه يجبر الأساتذة الطلاب في التفكّر فيما يتعلّمونه.

٣ - المرونة في التفكير، (أيضًا أثناء العمل الجماعي مع أفراد متنوعين معرفيًّا وثقافيًّا)".

وبعد أن وافق الجميع على ما طرحه منير، اختتم قائد هذا الجزء من النقاش، قائلاً: "من أبرز استنتاجاتنا حول التعليم في الخارج، هو اكتساب ثلاث عادات مهمة، هي:

١ - التساؤل وطرح المشكلات، في التعلّم النشط.

٢ - تَحَمُل الغموض، عند العمل في المختبر وفي الأنشطة الاستقصائية.

٣ - المخاطرة المسؤولة، عند القيام بتجارب غير معروفة النتائج".

وهنا علق سعيد: "يبدو ليّ أنكم قد بذلتم جهودًا كبيرة في التفكير في هذا الموضوع، وكأنكم أمام مشروع وطني كبير. لذلك توفيرًا للوقت والجهد، قمت خلال حديثكم بإعداد قائمة بعادات التفكير المنتج التي يمكن أن توجه العمل التربوي توجيهًا حقيقيًّا، وصنفتها في قسمين، وهما:

أولاً: عادات التفكير المنتج الأولية، وتشمل:

١. حُب الاستطلاع.

٢. المثابرة.

٣. التحكم بالتهور.

٤. حُسن الإصغاء .

٥. التساؤل من أجل الدقة وطرح مشكلات>

٦. التفكير الجماعي.

ثانيًا: عادات التفكير المنتج العليا، وتشمل:

٧. التفكّر.

٨. مرونة التفكير.

٩. تحمل الغموض.

١٠. الإقدام على مخاطر المسؤولية.

شكره الجميع على هذا **التصنيف** الدقيق، مؤكدين أن هذه النقاط هي فعلاً القائمة المعقولة.

فوائد عادات التفكير المنتج

وعن فوائد عادات التفكير المنتج، تحدث سند، فقال: "نستطيع القول، الآن، إن عادات التفكير المنتج تمثل رؤية جديدة حول ما الذي يجب أن نُعلّمه في مؤسساتنا التعليمية؟ وكيف نُعلّمه؟ فهي تبين ما يحتاجه كل من المعلمين وأولياء الأمور ليساعدوا المتعلّمين على اكتساب الأدوات الرئيسة لتحصيل المعرفة وتنميتها والنجاح في الحياة والعمل معًا. وتكتسب عادات التفكير المنتج أهمية خاصة في تنمية التفكير، وفي توجيه المتعلّمين للتعلّم بحماسة أكثر. وهي ذات أثر فعّال على المتعلّمين؛ فمن فوائدها أنها تساعد المتعلّم على أن يتحمل مسؤولية تفكيره، وأن يدرك أن التأني والتخطيط يؤديان الى نتائج أفضل دائمًا. كما أنها تسهم في توسيع خياله، وتنمي مهارات التفكير لديه، ومن ثم ترفع مستوى ذكائه الذي يعدُّ الطاقة الكامنة للتفكير. فضلاً عن كونها تُشعر المتعلّم بالأمان، مما يساعده على البحث والتقصي واكتشاف قدراته العقلية الكامنة؛ فتثير لديه الحماس لإطلاقها. علاوة على أنها تساعده على أن يكون أكثر استعدادًا لِحلِّ المشكلات بطرق مبتكرة وسهلة".

ثم لخص فوائد عادات التفكير المنتج في الآتي:

١ - تنشيط العقل، حيث تُسهم في جعل العقل فعالاً، فتصرفه عن الخمول؛ لأن تفعيل العقل يعنى النشاط والعمل والإخلاص والمشاركة.

٢ - تزود العقل بالحيوية، فتبعد عنه الملل، وتزيد من مشاركة الفرد في الحياة، وتشعره أنه منتج وفاعل في محيطه؛ وهذا يقوي الشعور بالحيوية والثقة بالذات.

٣ - تقوي الروابط الاجتماعية، فهي تنقل العقل إلى حالة النشاط والتساؤل؛ ما يدفعه إلى المشاركة في الأعمال الجماعية والاجتماعية، وتشحن العقل بروح نقدية فاعلة في ميدان العمل والإنتاج والإبداع.

٤ - تمثل سلوكًا فكريًّا يدعم التفكير النقدي، الذي يُعدُّ ذا فائدة كبيرة للمتعلّم والمجتمع على حدٍ سواء، للوصول إلى الإبداع، واكتشاف الجديد.

٥ - تحقق شمولية التفكير، حيث توفر رؤية شمولية للأشياء. وهذا أمر ضروري؛ عند قيام الشخص بتفسير الظواهر على نحو علمي، وعند اتخاذ قرار ما، وعند حل المشكلات.

وفي الختام، لخص سعيد نتائج اللقاء في الآتي:

١. تمثل عادات التفكير المنتج مقاربة جديدة في التعليم وتنمية التفكير، ويسبب إهمال استخدامها الكثير من القصور في نتائج العملية التعليمية، وفي مستوى التفكير.

٢. غيّرت عادات التفكير المنتج المفهوم القديم للممارسات التربوية التقليدية، التي كانت تركز على إكساب الطلاب معلومات صرفة، إلى اكتساب عادات عقلية أساسية.

٣. تنقسم عادات التفكير المنتج إلى نوعين: أولية وهي التي توجه اهتمام المتعلّمين وتفكيرهم لاكتساب المعرفة في مراحل العمر المبكرة، وعادات التفكير المنتج المتقدمة التي يحتاجها المتعلّم بعد اجتياز المرحلة الابتدائية.

٤. تبين عادات التفكير المنتج بجلاء ما يحتاجه كل من المعلمين وأولياء الأمور ليساعدوا المتعلّمين على اكتساب الأدوات الرئيسة لتحصيل المعرفة وتنميتها، والنجاح في الحياة والعمل معًا.

٥. تنير عادات التفكير المنتج، عقول المتعلّمين فتهيئها للتعلّم، وتعمل على تنميتها وتطويرها.

واختتم سعيد اللقاء بالقول: "كما قلت في بداية هذا اللقاء، أن لديكم معارف كثيرة حول هذا الموضوع، كونكم متخصصين في شئون التربية والتعليم، وهذا ما اتضح من خلال لقائنا اليوم، فقد كانت فرصة نادرة لنتشارك خبراتنا. واقترح عليكم تبني الشعار الآتي لمشروعكم هذا:

أنيروا عقول المتعلّمين قبل أن يُظلِم المستقبل.

وقبل أن ينصرف الجميع، اتفقوا – بمقترح من مُهجة – أن يخصصوا لقاءات قادمة لمناقشة عادات التفكير المنتج العشر.

عادات التفكير المنتج الأولية

"لا يكفي أن يكون لك عقل جديد
الأهم هو استخدامه جيدًا".
(رينيه ديكارت)

في اللقاء التالي، استهل منير الحديث بعرض مقدمة، فقال: "تؤدي عادات التفكير المنتج دورًا حاسمًا في نجاح الشخص سواء في حياته الدراسية أم الشخصية أم الأسرية أم الاجتماعية أم المهنية. وهذا يدعونا لأن نعمل جاهدين على إكسابها للمتعلّمين، وتنميتها لديهم لتصبح أدوات مهمة تنير دروب حياتهم في كل مساحات الحياة المتنوعة. لكن ينبغي أن نشير إلى أن أثر عادات التفكير المنتج ليس فوريًّا، وإنما يأخذ وقتًا طويلاً، فهي تنمو بالمران والممارسة حتى يشكل الوقود المتوافر منها كتلة حرجة؛ عندها يصبح لديها القدرة على أن تنير عقل الإنسان. وينبغي البدء بمجموعة منها، يسهل تعليمها للطلاب، وهي حُب الاستطلاع، والمثابرة، والتحكم في التهور، وحُسن الإصغاء، والتساؤل وطرح المشكلات، والتفكير الجماعي".

حُب الاستطلاع

"لا أتمتع بموهبة خاصة، لكنني شديد الفضول".
(ألبرت آينشتاين)

في بداية اللقاء، اقترح منير على زملائه أن يدير كل واحد منهم عادتين من عادات التفكير المنتج العشر، استحسن الجميع المقترح ووافقوا عليه. ثم بدأت مُهجة إدارة هذا اللقاء، فتحدثت قائلةً: "حُب الاستطلاع استعداد فطري عند الصغار، يمدهم بالدافع الكافي لاستكشاف العالم المحيط بهم، ويولّد لديهم الرغبة في الاستزادة من المعرفة، حيث إن التعلق الشديد بمعرفة الجديد هو الذي يزودهم بالطاقة اللازمة لإشباع فضولهم مما يؤدي إلى تنمية عقولهم وإثراء معارفهم، واكتشاف محيطهم الذي يعيشون فيه. إذ إن المتعلّمين يفرحون بالمعلومة التي يحصلون عليها، لا سيما تلك التي تتصف بالغرابة والطرافة؛ وبالمقابل يبتهج المفكرون أشد الابتهاج بملاحظة ذكية يسجلونها، أو قانون جديد يكتشفونه، أو فكرة جديدة يتوصلون إليها".

وأضافت: "باختصار، أستطيع أن أقول: إن حُب الاستطلاع عبارة عن رغبة لا تشبع، ونهم لا يقنع، يُترجم في سعي الفرد للمعرفة عن شيء ما بالبحث والتحري. ويعدُّ حُب الاستطلاع من عادات التفكير الأساسية التي يحتاجها أي فرد مفكّر. فمن الصعب أن تجد مفكّرًا واحدًا ليست لديه هذه العادة. إذ إن معظم المكتشفين والمخترعين والعلماء مثل: كولومبس، وآينشتين ، وتوماس أديسون، وغاليليو، وجراهام بل، وأحمد زويل، وغيرهم يتحلون بهذه العادة. وبإمكاننا أن نؤكد جازمين أنه من دون حُب الاستطلاع لم تكن البشرية قد حققت معظم الاكتشافات العلمية والتقنية التى أفادتها، ولم تكن قد تمتعت بما تنعم فيه من حياة رغدة، ولا أشك لحظة في أن شكل العالم كان سيبدو مختلفًا اليوم من دونها".

ثم نقلت الحديث إلى زميلها قائد، الذي قال: "أود أن أضيف إلى ما قيل أمرين: الأول هو أن كلمة "الفضول" تستخدم أحيانًا للدلالة على فعل يقوم به شخص يتدخل فيما لا يعنيه، أو يتعرض لما لا شأن له فيه. لكن المقصود، هنا، هو الفضول العلمي أو الفضول الإيجابي المرادف لِحُب الاستطلاع. الأمر الثاني، أنه، مع الأسف، يقل حُب الاستطلاع تدريجيًّا مع تقدم المتعلّمين في سنوات التعلّم نتيجة طبيعة المناهج الدراسية الحالية، ليس لأنها لا تنمي حُب الاستطلاع فقط؛ ولكن —أيضًا—لأنها تؤدي إلى كبحه بسبب رتابتها، وبسبب القيود الصفية والمدرسية المتعددة التي يفرضها المعلمون والإدارة المدرسية. ويمكن لأي أب أو أم أن يذكر – أو تذكر – لنا كيف يخمُد سلوك الأطفال، الذين يحبّون اللعب بطبعهم، مع تقدمهم في الصفوف الدراسية – بعد أن يضطروا إلى التركيز على موضوعات تُمليها عليهم المناهج الدراسية الجامدة".

ثم انتقل الحديث إلى سند، فقال: "إذا وفرت المناهج الدراسية فرص تنمية حُب الاستطلاع لدى المتعلّمين، فإنه ينمو معهم كلما كبروا إلى أن يصبحوا راشدين. وهو مفيد لهم؛ كونه ينمي معارفهم، وقد يصنع منهم باحثين متميزين. ففي المجالات البحثية، مثلاً، يرتبط حُب الاستطلاع على نحو شديد، بعدم قدرة الباحث الرصين على توقع النتائج، ما لم يكن البحث زائفًا. وكما تعلّمون فإنه كلما كانت نتائج البحث العلمي غير معروفة سلفًا للباحث، كانت دقة البحث وأثره أفضل في الوسط العلمي".

وأضاف: "إن ما يميز حُب الاستطلاع هو أنه يُسهم في تكوين وإيجاد شغف كبير لدى الفرد لمعرفة الحقيقة، وفي توليد رغبة وجدانية قويّة، تصل حدّ الولـه بمعرفة الحقيقة، وفَهم الظواهر التي تحدث في الكون والحياة، والبحث عن التفسيرات التي تزيل غموض جوانب متعددة في الوجود، والوقوف على القوانين التي تربط الأشياء وتحكمها، واستكشاف الجديد، سواء أكان ذلك في مجال العلوم الطبيعية أم في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهو شغف مقرون دائمًا بشعور يشبه الاشتياق؛ اشتياق الباحث إلى معرفة النتيجة الغامضة التي تسبر الفجوة المعرفية بموضوع ما لديه".

أهمية حُب الاستطلاع

بعد أن أكمل سند حديثه، جاء دور عادل، الذي قال: "أود أن أُضيف إلى ما قيل: إن حُب الاستطلاع، الذي يبحث عن الفَهم الصحيح ويحاول إزالة الغموض، هو شعور فطري عند الإنسان، وهو -أيضًا- قابل للنمو، أو الكبت. وتكمن أهميته في أنه يجيب عن الأسئلة التي تحيّر الإنسان، فيشكل باعثًا على تحري الحقيقة والدراسة والبحث والإبداع، ويحفّز على الاستغراق في طلب المعرفة؛ ذلك الاستغراق الذي يقاوم الملل، ويقوّي العزيمة، ويديم المثابرة والاستمرارية، بدافعية ذاتية، غايتها إشباع ذلك الفضول الإيجابي".

ثم لخص أهمية حُب الاستطلاع في الآتي:

١. ينشط عقل الفرد؛ فهو ينير عقل الشخص ويجعله دائم البحث عن الجديد ومحبًّا للاستكشاف، فيحاول دائمًا أن يشبع نهمه المعرفي، يسأل ويستفسر ويبحث، ويستمر في البحث عن الإجابات الصحيحة لما يشغل ذهنه. فنجد عقلة يعمل دائمًا بنشاط بحثا عمّا يستوقفه.

٢. يساعد على تنمية دقة الملاحظ؛ فهو يمكّن عقل الفرد من أن يكون سريع الملاحظة، فتكون لديه القدرة على التقاط أي أفكار جديدة تمرُّ أمامه؛ لأنه مهيأ لاستقبالها بحكم الفضول الذي لديه. فمن دون حُب الاستطلاع تمرُّ الأفكار أمام الشخص من دون أن يُلاحظها أو يُدركها؛ لأن عقله غير حساس لها، لا يمتلك الأداة المناسبة للسؤال عنها أو البحث عن نتائجها. وللإنسان أن يتساءل: كم من الأفكار المهمة ضاعت منه؛ لأنه ببساطة لم يمتلك حينها حُب الاستطلاع الذي ينير عقله ويزيده توهجًا بما يمكّنه من التساؤل أو البحث.

٣. يفتح عالمًا جديدًا أمام الفرد؛ إذ إن حُب الاستطلاع يمكّن الفرد من رؤية الجديد من الأشياء حوله، والتي لن يكون بمقدوره رؤيتها أو الاحساس بوجودها في غياب حُب الاستطلاع؛ إذ إن كثيرًا من الأشياء تختبئ تحت سطح الحياة العادية؛ لأنها

ببساطة تتطلب عقلاً منفتحًا محبًّا للاستطلاع ليكتشفها ويتعرف على الإمكانات الجديدة، ويظهرها للنور ليستفيد منها هو، ويستفيد منها الآخرون.

٤. يجلب التشويق للحياة ويبعد الملل؛ فهو يُسهم في إضاءة عقل الفرد، فالشخص المحب للاستطلاع أبعد ما يكون عن الفراغ والملل، فهناك دائمًا أشياء جديدة تشدُّ انتباهه وتشغله، فيبدأ في البحث عن الحقائق حولها والتحليل والدراسة، مما يبعث الإثارة والنشاط في حياته، فلا يترك له فراغًا مملاً.

واختتم عادل حديثه بمثال عن حُب الاستطلاع لدى العلماء، فقال: "ترك العالم الايطالي "غاليليو" دراسته الجامعية لأسباب مادية، لكن بفضل حُب الاستطلاع الذي لم يدفعه للبحث في قوانين الميكانيك فقط، بل تعداه إلى الشغف بالفضاء والأجرام السماوية والأفلاك، فقد تمكّن من تطوير تليسكوب، استطاع من خلاله الوصول إلى العديد من الملاحظات والاكتشافات الفلكية محققًا السبق على كثير من العلماء".

تنمية حُب الاستطلاع

كان آخر المتحدثين إلهام، التي وضّحت كيفية تنمية حُب الاستطلاع، فقالت: "يشبه العقل عضلات الجسم التي تقوى بالتمرين المستمر، وكذلك فإن حُب الاستطلاع يقوى بالتمرين الذهني والتحليل والبحث والدراسة، وتكون نتيجه حُب الاستطلاع أن يصبح العقل أقوى وأنشط من ذي قبل. فمن المهم تنمية حُب الاستطلاع عند الصغار. وينبغي كذلك عدم كبت حُب الاستطلاع الفطري الطبيعي لديهم، كما يحدث عند تجاهل أسئلتهم واستفساراتهم أو الاستخفاف بها؛ لأن ذلك يطفئ جذوة فضولهم في مهدها، لا سيما إذا كانت تلك الإجابات مما لا يقبل النقاش ولا يرضى بغير التسليم، سواء كانت إجابات سريعة جاهزة أو خرافية أو أسطورية، تقطع تسلسل تفكيرهم".

وأضافت: "بقدر ما لدى المتعلّمين من حُب الاستطلاع؛ يكون لديهم تقدير لأنفسهم، وبالتالي يكون لديهم رغبة في الاستمرار بالتعلّم والعمل المبدع، وتكوين خبرة

بمحيطهم، حيث يطورون كفاءات مناسبة، ويتفاعلون بشكل جيد مع عالمهم الخارجي مما يزيد من تطوير ثقتهم بأنفسهم أيضًا، الأمر الذي يسهم في تطوير قدراتهم الإبداعية".

ثم لخصت كيفية تنمية حُب الاستطلاع لدى المتعلّمين في النقاط الآتية:

١- توفير المثيرات الحسية المناسبة للنمو العقلي للمتعلّمين؛ عن طريق إحضار أشياء غريبة إلى غرفة الدرس وعرضها أمامهم، والحرص على الإجابة عن تساؤلاتهم بما يتناسب مع مستوياتهم العقلية، وتعليمهم كيف ومتى يسألون، وتدريبهم على صياغة الأسئلة الجيدة.

٢- تحرير المتعلّمين من الخوف من الوقوع في الخطأ؛ فكما نعرف يتعلّم الناس من أخطائهم، لذا لا بد من الأخذ بالاتجاه الهادئ والمتسامح تجاه أخطاء المتعلّمين، ما أمكن، واعتبارها فرصة للتعلّم.

٣- إتاحة فرص التعلّم: يساعد على تنمية الخبرات المتنوعة واستغلالها في تنمية قدرات المتعلّمين المختلفة، مع إتاحة فرصة ممارسة أشياء متشابهة لإدراك أوجه الشبه والاختلاف بينها.

٤- تشجيع الاختلاف والتفرد بين المتعلّمين: إن تشجيع الاختلاف في الرأي والعمل على التجريب، وإعطاء الفرد إحساسًا بتفرده هما أمران مرغوب بهما لتنمية تفرّد كل منهم.

٥- تشجيع المبادرات الفردية: توفير قسط مناسب من الفرص للدراسة الفردية والسماح لكل متعلّم بأن يتقدم حسب قدراته، وتوفير جو من المرونة في المختبرات العلمية، والخبرات الميدانية؛ كلها عوامل تشجع على تطوير العوامل الرئيسة للتفكير.

٦- تشجيع اختلاط المتعلّمين بالأشخاص المبدعين: تتطلب المستويات العليا من الإبداع أن يتقبل الآخرون الأفكار والأشياء غير المألوفة. إذ إن المتعلّم قد يسعى إلى

تشبيه نفسه بنماذج أكبر منه سنًّا ؛ لأن القدوة، والجو العام الإيجابي قد يكونان سبباً في تطوير التفكير لديهم.

وقبل أن تنصرف المجموعة، طلبت مُهجة، بصفتها مديرة الجلسة، من منير تلخيص الأفكار الرئيسة للقاء، فأورد النقاط الآتية:

١ - يمثل حُب الاستطلاع رغبة لا تشبع، ونهمًا لا يقنع يُترجم في رغبة شديدة لدى الشخص لمعرفة الكثير عن شيء ما بالبحث والتدقيق والتحليل. وهو من الصفات المهمة لدى أي مفكّر.

٢ - يقل حُب الاستطلاع تدريجيًّا مع تقدم المتعلّمين في التعلّم، نتيجة رتابة المناهج الدراسية، والقيود الصفية والمدرسية المتعددة التي يفرضها المعلمون والإدارات المدرسية.

٣ - ينمو حُب الاستطلاع لدى الفرد مع تقدم السنّ، إذا ما توافرت له فرص التدرب عليه خلال سنوات الدراسة.

٤ - تكمن أهمية حُب الاستطلاع في أنه يجيب عن أسئلة تحيّر الإنسان، فيشكل باعثًا على تحري الحقيقة والبحث عنها، ويحفّز على الاستغراق في طلب المعرفة.

٥ - يقوَّى حُب الاستطلاع بالتمرين الذهني والتحليل والبحث والدراسة، وتكون نتيجته أن يصبح العقل أقوى وأنشط من ذي قبل.

حُب الاستطلاع



يعني الرغبة في التعلّم ومعرفة الجديد ، والميل إلى الاشياء الغريبة والتشوق للأشياء النادرة، وهو جزء من طبيعة الإنسان منذ الصغر.

المثابرة

"كثير من الفاشلين في الحياة هم أشخاص لم يدركوا كم كانوا قريبين من تحقيق النجاح عندما استسلموا".
(توماس أديسون)

استهلت مُهجة هذا اللقاء المخصص للمثابرة مرحبة بالجميع، ثم طلبت من منير عرض مقدمة عامة عن المثابرة. وافق منير، ثم بدأ حديثة قائلاً: "نعلم من خبرتنا جيدًا أن النجاح في أي عمل يرتبط، عادةً، بالعمل الدؤوب أو ما نسميه هنا المثابرة، التي تعني الالتزام بالمهمة الموكلة إلى الفرد حتى اكتمالها. وتظهر المثابرة في صورة المواظبة بإصرار وعدم التراجع مهما كلف الثمن من وقت وجهد ومال. وتتمثل –أيضًا– في عدم الاستسلام بسهولة، ورفض الخمول والكسل والانعزال؛ وما يتطلبه ذلك من إعمال العقل وحثه على النشاط والعمل، وعلى وضع استراتيجيات جديدة في الحياة".

ثم انتقل الحديث إلى مُهجة، والتي أوجزت مفهوم المثابرة في دول شرق آسيا، فقالت: "أكتشف اليابانيون خصوصًا، والشرق آسيويون عمومًا، أهمية المثابرة للنجاح في الدراسة والعمل. فاليابانيون مثلاً يركزون على مبدأ "الجد والاجتهاد"، والذي يرون بأنه أهم من الموهبة والذكاء الفطري. كما أن الطلاب اليابانيين يعملون بنصائح معلميهم وآبائهم الذين يؤكدون عليهم بأن النجاح، بل والتفوق يمكن أن يتحققا بالاجتهاد، وبذل مزيد من الجهد، وليس بالذكاء فقط؛ فالجميع، عندهم، سواسية خلقوا بقدر كافٍ من الذكاء. فكل شخص يستطيع استيعاب أي شيء ودراسته في أي مجال، وتحقيق قدر كبير من النجاح من خلال بذل الجهد. ولذلك يعتقدون أن باستطاعة أي طالب أن يدرس أي مقرر دراسي حتى ولو كان لا يتناسب مع ميوله طالما توافرت لديه العزيمة على بذل الجهد، والمثابرة. إذ إن النجاح والتفوق، عندهم، لا يتحددان باختلاف الموهبة والذكاء، ولكن باختلاف الجهد المبذول".

عندها طلب قائد الحديث، وأضاف إلى ما قالته مُهجة: "أستطيع القول إن المثابرة دافع نفسي مهم بالنسبة للمتعلّمين، وهو ربما يشكّل سبب اعتقاد الطلاب اليابانيين بأن السبيل الوحيد للحصول على وظيفة مرموقة هو الاجتهاد والمثابرة أولاً في الحصول على فرصة قبول بمدرسة ثانوية متميزة؛ ومن ثم الالتحاق بجامعة مرموقة أيضًا، وهم محقّون في ذلك. لذلك نجدهم يعدّون أنفسهم جيدًا لاجتياز اختبارات صعبة للالتحاق بالمدرسة الثانوية، ثم بعد ذلك يمرّون بالتجربة نفسها عند الالتحاق بالجامعة التي يقع اختيارهم عليها، حيث إن دخول المدارس الثانوية والجامعة، في بلادهم، يتوقف في المقام الأول على نتائج هذه الاختبارات، وليس على نتائج اختبارات المدارس المتوسطة (الإعدادية) أو الثانوية فقط".

ثم أورد مثالاً من تراثنا العربي، لابن القيم، يقول فيها: "قد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنه بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لِمَن لا هم له، ولا لذة لِمَن لا صبر له، ولا نعيم لِمَن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له".

أهمية المثابرة

بعد ذلك انتقل الحديث إلى عادل، الذي عرض أهمية المثابرة في الدراسة والحياة، فقال: "نعلم جميعًا أن كل طريق مليء بالأزمات، لكن المثابرة هي السدُّ المنيع الذي يقف حائلاً بين الناس وبين الفشل والانكسار. فالمثابرة هي الأداة الفعالة لتجاوز العقبات والنجاح في الحياة، وهي الصديق الوفي في طريق النجاح والتميز. وقد نجد من لا يقتنع بأهمية بذل الجهد والمثابرة، أو حتى من يعارضنا على الفكرة فلا يكملوا السير معنا نحو الهدف المنشود، لكننا ينبغي ألا نأبه لأولئك من ضعفاء النفوس. كما أن المثابرة تتطلّب إعادة المحاولة دومًا وباستمرار بعد كل محاولة فاشلة. إنّ الفشل الحقيقي هو الكفُّ عن المحاولة، والقبول بالفشل، وفقدان المثابرة هو أحد أهم أسباب الفشل. فالنملة تصعد الشجرة مائة مرة وتسقط، ثم تعود صاعدة حتى تصل، فهي لا تكلّ ولا تملّ".

ثم أورد مقولة لأحد الحكماء: "إنّ المثابرة على الشيء هي بنت الإرادة وأمّ النجاح. فقلّما يأتي النجاح بغير المثابرة، وقلّما تنتهي المثابرة بغير النجاح. إنّ المثابرة هي الاستمرار في العمل حتى انهائه".

وهنا جاء دور سند في الحديث، وقال: "تأكد لنا أن الإصرار والعزم، وحدهما هما الدافعان نحو النجاح. والناجحون عادة ما يواجهون عقبات شتى، وتحديات جمة، لكنهم بالمثابرة والمداومة والإصرار حتمًا يحققون النجاح، والوسيلة الوحيدة للنجاح هي الاستمرار بقوة حتى النهاية، والفشل ينبغي أن يكون معلمًا لنا وليس مقبرة لطموحاتنا".

وأضاف: "من جانب آخر، نعلم أن كثيراً من الناس وضعوا لأنفسهم أهدافًا كبيرةً وخططوا لها جيدًا، لكن حين يأتي وقت الجد تجد البعض وقد أقعده الكسل أحيانًا، أو قصّرت به عزيمته أحيانًا أخرى؛ وهنا تتجلى قدرة الشخص المثابر على شق طريقه نحو هدفه، وتحقيق حلمه بالإصرار والمثابرة. وفي رأيي، فإن المثابرة هي أساس قصص النجاح؛ لأنها الوقود الذي يُذكي جذوة النجاح والمحرك الأساس لمسيرة التميز".

وعرض قصة "توماس اديسون" عن اختراع المصباح الكهربائي، فقال: "يُذكر أن العالم "توماس أديسون" جرّب ما يقارب الألفي مادة، وحاول ثمانمائة وأربع محاولات قبل أن ينجح في إضاءة المصباح الكهربائي، حتى أن الكثيرين بمن فيهم – الصحافة – اتهموه بالجنون. وعندما قيل له: ألا تكفّ بعد مئات المحاولات الفاشلة؟، رد عليهم بالقول: لقد تعلّمت أن (٨٠٤) محاولة لا تشعل المصباح".

ثم أورد مثالاً آخر من "راي كروك"، الرئيس السابق لسلسلة مطاعم ماكدونالدز، حثَّ فيه الناس على المثابرة قائلاً: "استمر دائمًا فلا يوجد في العالم شيء يمكنه أن يحلَّ محلّ الإصرار، فالموهبة وحدها لا تكفي، والذكاء وحده لا يكفي، والتعلّم وحده لا يكفي، لكن الإصرار والتصميم قادران على عمل كل شيء".

"من الصعب الفوز على الشخص الذي لا يستسلم أبدًا".
(بيب روث)

تنمية المثابرة

اختتمت إلهام الحديث بعرض شائق حول كيفية تنمية المثابرة، فقالت: "يمكن إكساب المتعلّمين المثابرة من خلال تدريبهم على تقبل الاحتمالات، ووضع استراتيجيات متنوعة لقراراتهم؛ حتى إذا فشلت إحداها ينتقلوا فورًا إلى الاستراتيجية التالية؛ وبهذا تُحل المشكلات، وتتخذ القرارات، وبهذا يتحقق النجاح، وهذا ما يجب تدريب المتعلّمين عليه".

ثم لخصت طرق تنمية المثابرة على النحو الآتي:

١. تدريب المتعلّمين على تجريب أكثر من حلّ لمشكلة أو قضية يعالجونها.
٢. تكليف المتعلّمين بقراءة كتاب صعب، أو إتمام مشروع معقد.
٣. تدريب المتعلّمين على استخدام استراتيجيات التعامل مع التحديات، مثل التفكير في مسارات بديلة للعمل.
٤. إيجاد الدافعية والحماس والرغبة لدى المتعلّمين، وأن يكون شعارهم في الحياة هو النجاح.

وفي نهاية اللقاء، لخصت مُهجة أبرز الأفكار المتصلة بالمثابرة، وهي:

١ - يرتبط النجاح في أي عمل، عادةً، بالعمل الدؤوب أو المثابرة، والتي تعني الالتزام بالمهمة الموكلة إلى الفرد، حتى اكتمالها وعدم الاستسلام بسهولة.
٢ - أكتشف اليابانيون خصوصًا، وسكان شرق آسيا عمومًا، أهمية المثابرة للنجاح في الدراسة والعمل، واعتبروها أهم من الموهبة والذكاء.

٣ - كل طريق مليء بالأزمات، لكن المثابرة هي السدُّ المنيع الذي يقف حائلاً بين الناس وبين الفشل والانكسار.

٤ - يمكن تنمية المثابرة لدى المتعلّمين باستخدام طرق متنوعة.

المثابرة



تعني الالتزام بالمهمة الموكلة إلى الفرد حتى إكمالها، والقدرة على تحليل المشكلة وتطوير استراتيجية لحلّها، وامتلاك ذخيرة من الاستراتيجيات البديلة لحلِّ المشكلات واستخدامها، وجمع الأدلة على نجاح الاستراتيجية المتبعة، والتراجع عن تلك الاستراتيجية إذا لم تنجح في حلِّ المشكلة.

التحكم في التهور

"كبح الرغبة الأولى أسهل من إرضاء كل ما يليها".
(بنجامين فرانكلين)

التقت المجموعة صباح ذات يوم، وبدأوا نقاشهم حول عادة التفكير المنتج الثالثة، وهي التحكم في التهور.

وفي هذا اللقاء انتقلت إدارة الجلسة إلى إلهام، التي استهلتها، قائلةً: "نعلم جميعًا أن التهور آفة من آفات السلوك الإنساني، والإنسان المتهور إنسان يضر نفسه، وقد يضر الآخرين، فكل ما يصدر عنه يضر ولا ينفع، حتى وإن حسنت نواياه. ولأن الإنسان عجول بطبعه (يستعجل جني ثمرة جهده، يريد قطفها سريعًا)؛ فلا بد من أن يتعلّم كيف يتحكم بتهوره. فالمتهور قد يقدم على حل مشكلة من دون فَهمها بصورة دقيقة، ومن دون وضع خطط واضحة ودقيقة لحلّها، أو قد يأخذ بأول حلّ لمشكلة ما من دون دراسة جميع الحلول الممكنة، ومن دون تمعّن فيها لاختيار الأنسب منها. لذلك فإن الاستعجال يقود في النهاية إلى الندم، كما أنه يعيق سير الحياة؛ أما الشخص الذي يؤدي عمله بتأنٍ ودقةٍ، فإنه ينجح، على الأرجح، في عمله. لذلك على الإنسان أن يكون متأنيًّا في اتخاذ القرارات، وعليه عدم الاستعجال في تنفيذ أموره؛ والمثل يقول: "إن في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة". ويتطلب التحكم في التهور بناء استراتيجيات محكمة ودقيقة لمواجهة المواقف، واستخدام بدائل متعددة تُبنى بصبر بعيدًا عن التسرع. لذا فإن المسألة تتطلب تمحيص أي فكرة وإعادة النظر فيها وتجريبها ذهنيًّا، وحساب نتائجها لضمان النجاح والتفوق".

ثم انتقل الحديث إلى قائد، الذي أكد على الآتي: "علينا أن نفرّق بين التأني في إنجاز المهام في موعدها، وبين التهوّر. فالتأني يعني أن يفكّر الشخص مليًا قبل اتخاذ أي قرار، ويأخذ وقته في التفكير فيه. أما التهور، فهو استعجال استكمال الأمور قبل أن تنضج

الظروف أو الشروط المطلوبة لتحقيقها. وعلى كل، فإن من يتمرن كثيراً على التفكير في حل المشكلات، تتراكم لديه الخبرة؛ فيستطيع أن يتخذ القرار أسرع بكثير من ذلك الشخص الذي لم يتعوّد ولم يتدرب على حل المشكلات بصورة كافية".

وأضاف قائد: "يعني التحكم في التهور، السيطرة على التهور مما يستلزم التأني والتفكير، قبل التعامل مع موقف أو الإقدام على حلّ المشكلة التي تواجه الفرد. كما يستلزم تطوير إجراءات للتعامل مع المهمة، والقدرة على وضع خطة، وقبول الاقتراحات لتحسين الأداء، والاستماع لوجهات نظر الآخرين التي تظهر من خلال عدد من المفردات الدالة على ذلك مثل: دقيقة من فضلك، دعني أفكر، لا تضغط عليّ، ... وغيرها، أو الأفعال الدالة على ذلك مثل: النظر يُمنة ويُسرة قبل عبور الشارع، وتفحص الخيارات قبل البدء في المهمة، والتأني قبل التسرع أثناء كتابة مقالة مثلاً".

ثم جاء دور مُهجة في الحديث، فأضافت: "يظهر التهور في سلوك المتعلّمين عند مسارعتهم في ذكر إجابة عن سؤال أو حل مسألة تلقائيًّا من دون تفكير، كما قد يبدؤون العمل في المختبر مثلاً من دون قراءة تعليمات التجربة بصورة كافية، أو قد يستخدمون جهازًا جديدًا لأول مرة من دون قراءة تعليمات استخدامه بدقة أو عدم قراءتها على الإطلاق (فيشغلونه بالمحاولة والخطأ مثلاً)، أو قد يقدمون على استقصاء مشكلة من دون وضع خطة واضحة ودقيقة للحلِّ، أو قد يصدرون حكمًا حول موضوع أو قضية ما قبل أن يفهموا جميع جوانبها؛ أو قد يوافقون على أول حل يُطرح عليهم لمشكلة ما، من دون سماع جميع الحلول، ومن دون التمعّن فيها لاختيار الأنسب منها".

أهمية التحكم بالتهور

بعد ذلك تحدث عادل عن أهمية التّحكم في التهور، حيث قال: "يساعد التحكم في التهور على تكوين صورة واضحة لموقف يتعامل معه الفرد، أو مهمة موكل إليه إنجازها، أو مشكلة مطلوب منه حلّها. ويساعد كذلك على وضع خطة عمل أو بلورة هدف أو توجه،

قبل البدء في إنجاز المهمة، أو التعامل مع الموقف، أو حل المشكلة. كل هذا يساعده على تكوين فَهم واضح للمهمة، أو خلفيات الموقف، أو حيثيات المشكلة؛ ومن ثم تطوير استراتيجية مناسبة لإنجاز المهمة، أو التعامل مع الموقف، أو حل المشكلة. وعند التنفيذ يساعد التحكم في التهور على التأني في إصدار حكم فوري حتى التوصل إلى الفَهم التّام، والإمعان في البدائل والنتائج لعدد من الاتجاهات الممكنة قبل التصرف. وهو ما يساعد على استكمال إنجاز المهمة، أو حل المشكلة، أو التعامل مع الموقف؛ ومن ثم التوصل إلى نتائج سليمة".

ثم تحدث سند، فقال: "نجد أن طلابنا يضيقون كثيرًا عند تكليفهم بمهام أو واجبات منزلية؛ فهم يريدون أن ينجزوا المهمة بسرعة كيفما كانت النتيجة، المهم عندهم إكمالها فقط. لذلك فإن المناهج الدراسية التي تساعد المتعلّمين على تمحيص أي فكرة وإعادة النظر فيها وتجريبها ذهنيًّا، وحساب نتائجها؛ يساعد على النجاح والإبداع. ويمكن إثراء المناهج الدراسية بأنشطة تساعد على تنمية التحكم في التهور عند المتعلّمين؛ من خلال تعويدهم على مناقشة أي فكرة من جميع جوانبها، وكذلك عدم قبولهم الأمور على علاتها، وعدم التسرع بالإيجاب أو الرفض للتعبير عن الرأي أو للإجابة عن سؤال؛ فالتأني قليلاً يعطي إجابة ناجحة وموقفًا متوازنًا".

تنمية التحكم في التهور

وحول تنمية التحكم في التهور، تحدثت إلهام وعرضت كيفية تنمية التحكم في التهور لدى المتعلّمين، فقالت: "من الأساليب الناجعة التي تساعد على التحكم في التهور أثناء التدريس: إعطاء المتعلّمين وقتًا كافيًا بعد طرح كل سؤال عليهم، لتوفير الفرص لهم للتحكم في التهور، وأخذ كل الأمور في الاعتبار قبل ذكر الإجابة، على أن يوضّح لهم سبب هذا الانتظار، وهنا ينبغي السيطرة على اندفاع الطلاب المجتهدين مراعاة لمصلحة بقية الطلاب. وكذلك ينبغي قبل البدء في أي نشاط عملي، أن يُعطى المتعلّمين الوقت

الكافي لقراءة تعليمات النشاط، وفهم خطواته، والتأكد من فهمهم المقصود بكل خطوة من خطوات النشاط".

ثم أحيل الحديث إلى منير لتلخيص بعض النصائح المهمة لتدريب المتعلّمين على التّحكم في التهور، فذكر النقاط الآتية:

١. توفير برامج وأنشطة جماعية لمساعدة المتعلّمين على تحليل المشكلات، وتخطيط المشروعات بعناية قبل البدء فيها.

٢. تدريب المتعلمين على مراجعة أي قرار بهدوء قبل اتخاذه.

٣. تدريب المتعلمين على التأني وأخذ الوقت الكافي قبل اتخاذ القرارات، وطلب المشورة قبل اتخاذ القرار، إذا لزم الأمر.

٤. تدريب المتعلمين على أن يتذكروا، دائمًا، أن التسرع لن يفيد، بل قد يؤدي إلى الندم.

وفي نهاية اللقاء كان على إلهام تلخيص أهم الأفكار التي تمَّ التوصل إليها في هذا اللقاء، والتي عددتها في الآتي:

١ - التهور آفة من آفات السلوك الإنساني، إذ إن الإنسان المتهور يضر نفسه، وقد يضر الآخرين. ويستلزم التحكم في التهور التأني والتفكير، قبل التعامل مع موقف أو الإقدام على حلِّ المشكلة التي يتعرض لها الفرد.

٢ - يظهر التهور في سلوك المتعلّمين عند مسارعتهم في ذكر إجابة عن سؤال أو حلِّ مسألة تلقائيًّا من دون تفكير، كما قد يبدؤون العمل في المختبر مثلاً من دون قراءة تعليمات التجربة بصورة كافية.

٣ - يساعد التحكم في التهور على استكمال إنجاز مهمة أو حلّ مشكلة، أو التعامل مع موقف بدراية كافية، ووضع خطط مناسبة، ومن ثم الوصول إلى نتائج سليمة.

٤ - ينبغي أن تساعد المناهج الدراسية المتعلّمين على تمحيص أي فكرة، وإعادة النظر فيها وتجريبها ذهنيًّا، وحساب نتائجها؛ بما يحقق النجاح والإبداع.

٥ - من الأساليب الناجعة في التحكم بالتهور: المناقشات، التي يتمُّ فيها إعطاء المتعلّمين وقتًا كافيًا بعد طرح كل سؤال عليهم، قبل استقبال الإجابات منهم، لتوفير الفرص الكافية لهم للتحكم بالتهور، وأخذ كل الأمور في الاعتبار قبل ذكر الإجابة.

التحكم في التهور



يعني التأني والتفكير قبل الإقدام على حل أي مشكلة يواجهها الفرد. وبذل الجهد لِفَهم المشكلة، وتطوير استراتيجية للتعامل معها، مع التأني في إصدار الحكم الفوري حتى التوصل إلى فَهم تام لها، والإمعان في البدائل والنتائج لعدد من الاتجاهات الممكنة قبل اتخاذ قرار.

حُسن الإصغاء

"لا شيء يزيد من احترام شخص لآخر والشعور بالعرفان نحوه أكثر من الاستماع إليه بعناية واهتمام".
(أوتو رومباخ)

التقى الزملاء الستة حول طاولة الاجتماعات لمناقشة حُسن الإصغاء، وافتتحت إلهام اللقاء قائلةً: "يجهَل كثير من الناس أهميَّة حُسن الإصغاء، خاصَّة في ظلِّ التطورات الاقتصادية والتقنية المعاصرة، وما يَلزَم تلك التطورات من سرعة واستغلال للوقت، فضلاً عن سرعة دوران عجلة الزمان، وعلى الرغم من ذلك فإن حُسن الإصغاء له تأثير كبير في التعليم والعلاقات الاجتماعية والإنسانية. ومن ثم فإن الإصغاء الجيد جزء لا يتجزَّأ من الحديث الفعَّال، فهو وسيلة لكَسْب ثِقة الناس وتأييدهم وكسب احترامهم وتقديرهم؛ الأمر الذى دعا خبراء التنمية البشرية إلى الاعتقاد بأن الإصغاء فنٌّ، وأنه أساس كلِّ حديث جيد".

وتابعت إلهام حديثها عن الإصغاء: "يعني حُسن الإصغاء التعرف على وجهات نظر الآخرين المتنوعة بشفافية، والتعامل مع الشخص الآخر بتهذيب؛ من خلال إظهار الفهَم والتعاطف مع ما يطرحه، كأن يعيد المُصغي صياغة الفكرة بدقة، أو إضافة معانٍ أخرى إليها أو توضيحها أو تقديم مثال عليها".

وأضافت: "كما أن الإصغاء فِعل نقدي تأملي، وعمل ذهني معقد يتضمن كثيراً من الأنشطة والقدرة الذهنية، لذا فهو يُعدُّ فن، وبداية الفهم. وحين يُصغي المرء لغيره، فكأنه يقول له: إني أتعاطف مع وجهة نظرك، بمعنى أن لديه رغبة وقدرة على تحليل المعاني الواردة في أقوال غيره، وفي هذا مستوى عال من الذكاء. وفي الإصغاء للآخرين كسب ودّهم، وتخفيف حدة انفعالهم، وإشعارهم بمدى الاهتمام بهم. وحين يصغي الإنسان إلى الآخرين تنضج خبرته في الحياة بصورة أفضل".

ثم نقلت الحديث إلى قائد الذي أكد على الآتي: "يُعد الإصغاء ركنًا أساسًا فى استيعاب وتحصيل المتعلّمين، فأحيانًا يتأخر المتعلّم في التحصيل الدراسي ليس بسبب نقص في ذكائه؛ بل لأنه لا يفهم ولا يستوعب بوضوح؛ كونه لم يتعود أن يستمع للآخرين بوضوح. وقد وجد العلماء أن هناك ارتباطًا قويًا بين عدم تطوير مهارة الاستماع وضعف السمع من جهة، وبين قلة الاستيعاب والتحصيل الدراسي لدى الطلاب من جهة أخرى. فمن الملاحظ أن للاستماع دورًا مهمًا في عملية الاستيعاب والتحصيل لدى المتعلّمين، وبخاصة الصغار؛ لأنهم في أشدِّ الحاجة إلى تنمية هذه العادة في بداية مراحل تكوينهم اللغوي والمعرفي؛ لما لها من فائدة ونفع على هؤلاء الأطفال في المراحل الدراسية والحياتية القادمة".

أهمية الإصغاء

عند هذه النقطة، طلبت مُهجة الحديث، فقالت: "نعرف أن الناس تصغي ما معدله (٥٥٪) من وقتهم، ومع ذلك فإن الإصغاء هو أقل شيء يتعلّمه المتعلّمون في المدارس!".

وعن أهمية الإصغاء أوضحت: "تتجلى أهمية الإصغاء في الدور الذي يقدمه بشكل عام للفرد والمجتمع، للصغار والكبار، وبشكل خاص للعاملين والمهتمين بحقل التعليم؛ وذلك لأنه يوجد جوًّا من التواصل والتآزر بين المتحدث والمُصغي. فهو يعمل على كسر الحاجز بين الطرفين. وتزداد قيمة الإصغاء عندما يكون الإصغاء سببًا في بثِّ روح التعايش، ونشر أشكال التضامن بين الأفراد. ويكفي أن نشير إلى أن فن الإصغاء يدخل اليوم، في صلب اهتمامات البحث السوسيولوجي والسيكولوجي".

وهنا استلم عادل الحديث، فأضاف: "في تقديري تكمُن أهمية الإصغاء في كونه فضيلة يجب أن نتحلّى بها جميعًا، تمامًا كما نتحلّى بالوداعة واللّطف والتّواضع والسّلام والعفّة وعزّة النّفس. وهو مهمّ لأنّه يحمل في جنباته احترامًا للمتكلّم، ويُشير إلى ثقة المستمع في نفسه".

وأضاف: "الإصغاء مهم؛ لأنه يساعد على تحقيق غرضين رئيسين: أولهما، تعزيز العلاقات الشخصية بين المتحدث والمُصغي، والثاني حل المشكلات العالقة بينهما. وكلا الأمرين مهم لإقامة علاقات تعاون بين الأفراد. لكن تتزايد أهمية الهدف الثاني من الحوار هذه الأيام بصورة كبيرة، حيث إننا نجد أنفسنا أمام مشكلات تتطلب التوصل إلى فَهم مشترك مع الآخرين، أكثر مما كان عليه الحال في الماضي. وبالنسبة للمتعلّمين فهو يعمق العلاقات بينهم، ويُسهم في نقل الخبرات التعليمية فيما بينهم مما ينمى عقولهم باستمرار".

تنمية حُسن الإصغاء

وقبل أن تختتم إلهام الحديث، تحدث سند عن عادة التفكير المنتج هذه، قائلاً: "يتم تعليم حُسن الإصغاء بتمرين المتعلّمين على التحلي بالصبر، وقبول آراء الآخرين، ومناقشتها بهدوء؛ فكثير من الأمور والمشكلات تُحل بالاستماع إلى الآخر والإصغاء إليه. والمقصود بالإصغاء هنا ليس الاستماع فقط بينما المُصغي لا يدري أو لا يعير اهتمام لما يقوله الطرف الآخر، بل أن ينصت وينفعل لما يسمع ويناقش ما سمعه بتعاطف وتقدير، مع إبداء الحجج بعيداً عن تجريح شخصية مَن يستمع ويصغي إليه".

وأضاف: "أما في التعليم، يُصغي المتعلّمون طيلة الدروس في مؤسساتنا التعليمية، لكن قد يكونون شاردين في كثير من الوقت، لذلك يمكن تدريبهم على الإصغاء المفيد، بأن يُطلب منهم أن يذكروا أهم الأفكار الرئيسة التي تناولها الدرس أو أجزاءً منه، أو إعادة الإجابة التي ذكرها زميل لهم أثناء الدرس؛ على أن يُبين لهم أهمية ذلك في حياتهم التّعليمية والشخصية".

وفي الأخير، طلبت إلهام من منير عرض كيفية تنمية حُسن الإصغاء؛ فقال: "هناك مجموعة من المعايير يمكن من خلالها تمييز المنصت الإيجابي من المنصت السّلبي، يمكن إجمالها في: تحمل مسئولية التواصل، والاهتمام برسالة المتحدث، وفَهم الرسائل

اللفظية وغير اللفظية، والتفاعل أثناء الإنصات، وتدوين الملاحظات إذا لزم الأمر. وبقدر الجهد الذي يبذله الفرد، وبقدر رغبته في التطوير؛ يحدث التحسن في الإنصات لديه".

ثم تناول ورقًا مقوى، وكتب عليها كيفية تنمية حُسن الإصغاء لدى المتعلّمين أوجزها في نقاط، وهي:

١. تدريس استراتيجيات الاستماع الفعال.

٢. عرض المتعلّمين ما تعلّموه من زملائهم أمام بقية طلاب الصف.

٣. إيجاد جو يسمح للمتعلّمين بالتباهي بإنجازات المجموعة.

٤. تدريب المتعلّمين على التحكم في مشتتات الاستماع الداخلية، مثل أن يفكّر المتعلّم أثناء الدرس بمباراة فريقه الختامية مساء ذلك اليوم؛ وكذلك التحكم في مشتتات الاستماع الخارجية، مثل الردِّ على الهاتف النقال أثناء أداء المهام التعليمية.

٥. تدريبهم على إيجاد علاقة جيدة مع المتحدث أثناء الاستماع إليه، ليس فقط لِفَهم وتقدير ما يقوله، ولكن —أيضًا— لتقدير شخصه.

٦. تسجيل الملاحظات أثناء الاستماع، ولكن بذكاء من خلال: تدوين النقاط الرئيسة، والكتابة بشكل واضح لسهولة الرجوع إليها عند الحاجة.

وفي نهاية اللقاء، لخصت إلهام أهم الأفكار التي تمَّ التوصل إليها في اللقاء، وهي:

١ - يعني حُسن الإصغاء، القدرة على رؤية مناظير الآخرين المتنوعة بشفافية، والاهتمام بصورة مهذبة بالمتحدث من خلال إظهار الفَهم والتعاطف مع الفكرة، أو إعادة صياغة الفكرة بدقة، أو إضافة معانٍ أخرى إليها، أو توضيحها أو تقديم مثال عليها.

٢ - يساعد الإصغاء على فَهم الآخر وفي تعميق العلاقات بين المتعلّمين، ويُسهم في نقل الخبرات التعليمية فيما بينهم، مما ينمي عقولهم باستمرار.

٣ - يتميز المنصت الإيجابي عن المنصت السلبي بأنه يتحمل مسئولية التواصل، ويهتم برسالة المتحدث، ويفهم الرسائل اللفظية وغير اللفظية، ويتفاعل أثناء الإنصات، ويفهم ما يستمع إليه، ويدون الملاحظات إذا لزم الأمر.

٤ - يتمُّ تعليم حُسن الإصغاء بتمرين المتعلّمين على التحلي بالصبر، وقبول آراء الآخرين، ومناقشتها بهدوء؛ فكثير من الأمور والمشكلات تحلُّ بالاستماع إلى الآخر والإصغاء إليه.

حُسن الإصغاء



يعني القدرة على التعرف على وجهات نظر الآخرين المتنوعة بشفافية، والاهتمام بصورة مهذبة بالشخص الآخر؛ من خلال إظهار الفهم والتعاطف مع الفكرة، أو إعادة صياغة هذه الفكرة بدقة، أو إضافة معان أخرى إليها، أو توضيحها أو تقديم مثال عليها.

التساؤل وطرح المشكلات

" من يسأل سؤالاً يبدو أحمق لخمس دقائق،
لكن من لا يسأل سؤالا يبقى أحمق إلى الأبد".
(مثل صيني)

في لقاء المجموعة المخصص لمناقشة عادة التفكير المنتج الخامسة (التساؤل وطرح المشكلات)، انتقلت إدارة الجلسة إلى سند، والذي بدأ اللقاء بعرض مقدمة عامة، حيث قال: "نعلم جميعًا أن العقل البشري لم يتطوّر على مدى تاريخه الطويل إلا من خلال التساؤل، حيث إن التساؤل يُعدُّ المحرك الأساس للعقل والدافع، بل والوسيلة الفعالة للوصول إلى المعرفة عن تبصر وقناعة؛ فمن خلاله يتمكّن الشخص من التحرر من التفسيرات التقليدية، والإجابات الجاهزة، ومن التصورات الشائعة؛ لأنه يجعله يبحث بنفسه عن مصادر المعرفة".

وعن أهمية التساؤل عند علماء نظرية المعرفة، أوضح سند: "يقول علماء نظرية المعرفة، إن العقليّة العلميّة تقدّر السؤال، بل وتمجّده، وتعده واحدًا من أهم مرتكزاتها على الإطلاق، وتعطيه مكانة عالية، وأهمية قصوى في البحث عن المعرفة؛ وذلك لأنّه الأسلوب الذي يمكّن المفكرين من التشكيك في المسلّمات المعرفية التي يُعتقد بها بقوّة. ويرون أنّ السؤال يضعنا أمام أنفسنا وقناعاتنا القديمة من جديد؛ فنتساءل: ما دليل صحتها؟ من أين جيء بها؟ وألا يتعارض هذا مع كذا وكذا؟ وكيف تعرف؟ ومتى تعرف؟ وما السبب؟ وما النتيجة؟"

وأضاف: "ويؤكدون على أن التشكيك ليس مطلوبًا بحدِّ ذاته، بل هو مطلوب لما يحققه من غربلة الأفكار السابقة، أي أنه مرحلة على الطريق للوصول إلى المعرفة بتمعن، وليس مذهبًا في الفكر. فالتساؤل هو القدرة على العثور على المشكلات وحلّها وطرح الأسئلة حولها بما من شأنه ملء الفجوات القائمة بين ما يعرفه الفرد وما لا يعرفه".

ثم طلب قائد الحديث، وقال:"للتساؤل فضل كبير في تحقيق العديد من الاكتشافات العلمية، والتي غالبًا ما تبدأ بتساؤل أو أكثر. ومن أشهر ما قيل عن فضل التساؤل قصة إسحاق نيوتن واكتشافه الجاذبية الأرضية التي نعرفها جميعًا، ويسعدني أن أعيدها على مسامعكم لتأكيد فضل التساؤل: "بينما كان إسحاق نيوتن جالسًا على مقعد خشبي تحت شجرة تفاح، سقطت تفاحة على الأرض، ولو أن شخصًا آخر كان مكانه لالتقطها والتهمها على الفور. فما أجمل أن تأكل تفاحة سقطت لتوها من على الشجرة. لكن نيوتن لم يفعل ذلك، بل انشغل في التفكير؛ فسأل نفسه: لم يقذف هذه التفاحة أحد، فلماذا لم تتجه إلى أعلى؟ ولماذا سقطت على الأرض؟ ولماذا اتخذت هذا المسار وصارت في هذا المصير؟". لقد كانت هذه الأسئلة هي بداية السير في طريق طويل، كان لا بد من أن ينتهي باكتشاف نيوتن قانون الجاذبية الأرضية".

وهنا أضاف منير، قائلاً: "هذه العقلية المتسائلة مكنت إسحاق نيوتن من اكتشاف قانون الجاذبية الأرضية، وكذلك العديد من الاكتشافات كان بدايتها التساؤل. ونيوتن مثله مثل غيره من العلماء الذين بدأوا بالتساؤل، وأصبح لهم الفضل اليوم في التقدم العلمي والمعرفي الذي ننعم بمنتجاته في حياتنا المعرفية واليومية".

أهمية التساؤل

بعده واصل سند الحديث عن أهمية التساؤل، فقال: "يُعدُّ التساؤل أداة مؤثرة في تعلّم المتعلّمين على مرِّ العصور، وبالتالي فإن من المهم بالنسبة للمعلمين أن يدربوا المتعلّمين على التساؤل الفعال؛ إذ إن العقل المتسائل عقل نشط، عقل باحث عن المعرفة، عقل يقظ لما يدور من حوله: يرصد ما يلاحظه، وينمو باستمرار. أما العقل غير المتسائل فهو على العكس، عقل كسول، لا يلاحظ ما يدور حوله، وبالتالي تكون فرص نموه محدودة. ولأنه لا يوجد مستوى تساؤل أو تسلسل معين ملائم لجميع المتعلّمين، فإن تطوير التربويين للتساؤلات الملائمة يُسهم في تطوير أنواع مختلفة من التعلّم المعرفي عند

المتعلّمين. ومن أجل تحديد نوع التساؤلات، ومستوى وطبيعة الأسئلة الأكثر ملاءمة لتطوير التعلّم المعرفي لدى المتعلّمين، لا بد للتربويين من أن يحددوا أهداف ومحتوى المنهج والأنشطة التعليمية، كما ينبغي أن تتسم هذه الأسئلة بالملاءمة لجميع المتعلّمين على اختلاف قدراتهم".

وأضاف: "باختصار، أقول ينبغي أن يكون هدف التعليم الحقيقي هو تشجيع المتعلّمين على التفكير، لا أن يقفوا عند حد الحفظ والتلقين؛ ومن ثم من المفترض حين يتعلّم المتعلّمون الفيزياء، مثلاً، أن يتساءلوا ويفكروا فيزيائيًّا، وحين يتعلّمون الرياضيات أن يتساءلوا ويفكروا رياضيًّا، وحين يتعلّمون التاريخ أن يتساءلوا ويفكروا تاريخيًّا، وهكذا دواليك".

فيما تناولت مُهجة الحديث من منظور علم النفس، فقالت: "يقال في علم النفس، إن التساؤل استعداد فطري يولد مع الإنسان، وهو أداة شك وحيرة فيما هو قائم من أجل البحث عن الحقيقة، ينمو ويتطور بالتدريب، دافعه العقلي يستند إلى ما سميناه سابقًا حُب الاستطلاع، والذي يتجلى في سلوك الطفل الذي لا تنقطع تساؤلاته حول العالم المحيط به، وينمو مع تقدم الإنسان في العمر. لكن يأتي العقل الجمعي، غالبًا، فيقمع هذه التساؤلات ويفرض مسلمات موروثة من دون النظر إلى قيمتها الحقيقة أو إلى كفايتها فيصاب عقله بالحرمان والصدأ. لذلك فإن مهمة التربية هي توفير فرص التساؤل أمام المتعلّمين، ومساعدتهم للوصول إلى إجابات تشبع فضولهم، وتحررهم من القمع الذي تفرضه كثير من العادات البالية في المجتمع".

ثم أخذ عادل دوره في الحديث، وركز على فوائد التساؤل على المتعلّمين، فقال: "هناك فوائد عديدة للتساؤل يُجمع عليها التربويون، وأبرزها الآتي:

- يساعد المتعلّمين على صياغة مشكلاتهم المعرفية حول موضوع ما، وعلى تحديد الفجوة بين ما يعرفونه وما لا يعرفونه.

- يساعد على منع كل من سلبية المتعلّمين والتعلّم عن طريق الحفظ من دون فَهم المعنى.
- يساعد المتعلّمين على أن يفكروا بدقة أكثر وبعناية وبأسلوب منظم.
- يساعد المتعلّمين على الاعتماد على أنفسهم في بناء المعنى من خلال اكتشافهم له، وبذلك يبقى أثره طويلاً.
- يزيد من فَهم المتعلّمين للموضوعات التي يدرسونها؛ وبالتالي يؤدي لتعلّم ذي المعنى.
- يساعد على انتقال أثر التعلّم، ويزيد دافعية المتعلّمين للتعلّم؛ وبالتالي تبنى المعرفة العميقة.
- يساعد المتعلّمين على أن يوصِلوا للمعلم ما يعرفونه بالفعل عن موضوع التعلّم، وكيفية البدء في أداء مهام التعلّم.
- يساعد المعلم على تحديد أو تشخيص معارف المتعلّمين التي يساء فَهمها أو استخدامها بطريقة خطأ، كما يساعده على تجنيب المتعلّمين بعض أساليب التدريس غير الملاءمة لهم.

يساعد المتعلّمين على الاستماع إلى أنفسهم وهم يفكرون، فيصبحون أكثر وعيًا بنقاط قوتهم ونقاط ضعفهم".

"وُصِف ابن عباس بأنه فتى الكُهول، له قلب عَقول ولسان سَؤول".

تنمية التساؤل

وكالعادة، كانت إلهام آخر المتحدثين عن عادات التفكير المنتج، فتناولت كيفية تنمية التساؤل، فقالت: "يعد التساؤل أهم العوامل المعززة لتنمية التفكير الإيجابي المنتج الفعال، فهو يجعل التعلّم ذا معنى، وبالتالي يسهل توظيفه في الواقع، ومن ثم انتقال أثر

التعلّم؛ وبهذا فإن فتح أذهان المتعلّمين لوجود تساؤلات عديدة لشيء من الأشياء من شأنه أن ينمي عقولهم. فكما نعرف جميعًا، فإن معارفنا كلها ناتجة عن التساؤل، فهو الوسيلة العقلية الأهم لدينا، ولدى مَن يرغب في تنمية عقله".

ثم لخصت كيفية تنمية التساؤل عند المتعلّمين في أنشطة، مثل:

١. إحضار أشياء غريبة إلى قاعة الدرس، وعرضها أمام المتعلّمين لإثارة التساؤل لديهم.
٢. إشباع فضول المتعلّمين بشأن موضوعات التعلّم، وتعزيزها بالأمثلة.
٣. إعطاء الطلاب الفرص المناسبة للتساؤل، وعدم حرمانهم من فرص الإجابة عن تساؤلاتهم عند عرضها.
٤. توفير الفرص والأدوات اللازمة لدعم التساؤل.
٥. إلقاء الضوء على التساؤلات النموذجية للمتعلّمين، والثناء عليها.

في الأخير، تقدم سند وشكر جميع زملائه على هذه الإسهامات المتميزة، ثم لخص أبرز نقاط النقاش في الآتي:

١ - التساؤل استعداد فطري يولد مع الإنسان وهو أداة شك وحيرة فيما هو قائم من أجل البحث عن الحقيقة، ينمو ويتطور بالتدريب، دافعه العقلي يستند إلى ما سميناه سابقًا (حُب الاستطلاع).
٢ - التساؤل هو القدرة على العثور على طرح الأسئلة حول موضوع ما، بما من شأنه ملء الفجوات القائمة بين ما يعرفه الفرد، وبين ما لا يعرفه.
٣ - يسهم التساؤل في تحقيق العديد من الاكتشافات العلمية، التي غالبًا ما تبدأ بتساؤل أو أكثر.
٤ - يُعدُّ التساؤل أداة مؤثرة في تعلّم المتعلّمين على مرِّ العصور، وبالتالي فإن من المهم بالنسبة للمعلمين أن يدربوا المتعلّمين على التساؤل الفعال.

هناك أساليب تربوية عديدة يمكن أن تساعد في تنمية التساؤل عند المتعلّمين؛ بما يسهم في نموهم المعرفي والعقلي.



التساؤل وطرق المشكلات

يعني القدرة على العثور على المشكلات وطرح أسئلة حولها، وحلّها بما من شأنه ملء الفجوات القائمة بين ما يعرفه الفرد وبين ما لا يعرفه. والميل إلى التساؤل وطرح أسئلة حول وجهات نظر بديلة، وطرح أسئلة تقيم ارتباطات وعلاقات سببية وطرح مشكلات افتراضية، ومعرفة التضاربات والتناقضات والظواهر القائمة في البيئة، وسبر غور الأسباب الدافعة لها.

التفكير الجماعي

" عقلان خير من عقل واحد ، وثلاثة عقول خير من عقلين".
(مثل بولندي)

كان التفكير الجماعي آخر عادات التفكير المنتج الأولية التي ناقشتها المجموعة. وفي هذا اللقاء، استهل سند النقاش بمقدمة استمدّها من أفكار عالم النفس الروسي "ليف فيجوتسكي"، قال فيها: "يستمدّ تطور الفرد العقلي من التفاعلات الاجتماعية التي يجريها في إطار من المعاني الثقافية؛ وذلك لأن تعلّم الأفراد كمجموعة يفوق تعلّم كل منهم على حدة؛ ولأن تعاون الأفراد، يجعل تعلّم كل منهم أفضل وأكثر فاعلية من تعلّم الواحد منهم منفردًا. ويشكل التفاعل بين الأفراد علاقة تبادلية أو ما يسمى بالاعتماد المتبادل الإيجابي الذي يتحمل فيه كل فرد مسئولية تعلّمه، ومسئولية تعلّم بقية أفراد المجموعة. وتتضمن عملية التعلّم الجماعي عوامل عدة مثل: العوامل الثقافية، والعوامل اللغوية، والتفاعلات مع الأقران، والتفاعل مع المعلم".

وأوضح: "من هنا تبرز بوضوح أهمية التفكير معًا أو التفكير الجماعي؛ كونه يعزز ما لدى الفرد من معارف، إن كانت صحيحة، ويصحح ما بها من أخطاء إن كانت خطأ، كما يوفر بيئة معرفية ثرية، تسرّع تعلّم الأفراد وتثريه؛ فهو دائمًا ما يُعظم تعلّم الأفراد فيما بينهم".

ثم نقل سند الحديث إلى قائد، الذي بدأ بتوضيح معنى التفكير الجماعي، فقال: "يعني التفكير الجماعي ببساطة مقدرة الفرد على التفكير باتساق مع الآخرين، والتواصل بشكل كبير معهم وتلمس احتياجاتهم، والقدرة على تبرير الأفكار، واختبار مدى صلاحية استراتيجيات الحلول عند الآخرين، والإصغاء، والتعاطف، والسعي وراء رأي جماعي جيد، والتخلي عن فكرة ما من أجل العمل على فكرة أفضل من شخص آخر، والقيادة الجماعية والإيثار".

وأضاف موضحًا: "إن تبادل الأفكار بين أفراد المجتمع يرقى بالمجتمع، ويسهم في حل مشكلاته قبل تفاقمها، ويعزز التعاون، ويقضي على بؤر الاختلاف والاختلال. إنه بحق أداة المجتمع الفعالة للنمو والتعاون والتآزر والتوافق".

ثم طلب سند الحديث، فقال: "بالنسبة للمتعلّمين، فإنهم يكتسبون خلال التفكير الجماعي معلومات مناسبة ونماذج واستراتيجيات تفكير جديدة من خلال تفاعلاتهم وحواراتهم مع أقرانهم، حيث يكتسبون عبر مبادلاتهم الجماعية استراتيجيات جديدة يستخدمونها في التواصل فيما بينهم".

ثم طلبت مُهجة الحديث، لتعرض ما لاحظته على بعض المتعلّمين، فقالت: "نلاحظ أن كثيرًا من المتعلّمين غير قادرين اليوم على العمل ضمن مجموعة بسبب ضعف مهاراتهم الاجتماعية، فمعظمهم يفضل العمل الفردي، فتسمعهم يقولون كلمات مثل: دعني وحدي، سوف أفعل هذا بنفسي، لا أحب العمل مع الآخرين. وهذا مؤشر سلبي؛ لأنه يقلل من فرص أولئك المتعلّمين في الاستفادة من أقرانهم. وهذا مخالف للطبيعة الإنسانية، وطبيعة نمو المعرفة وتراكمها".

ثم ضربت مثالاً على أهمية التفكير الجماعي، قائلة: "من الأدلة على أهمية التفكير الجماعي ما أوضحه عالم الفيزياء النظرية، ديفيد بويم، عندما قال إن تجربته الشخصية، في علم الفيزياء بينت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن علماء الفيزياء المشهورين حول العالم، يتوصلون إلى أفكارهم الإبداعية ليس من خلال التفكير الانفرادي، كما يعتقد البعض، بل من خلال الحوارات التي تتم بينهم خلال اللقاءات العلمية".

واختتمت: "أعتقد أن هذا دليل قاطع على ما نبحث فيه اليوم".

أهمية التفكير الجماعي

ثم أُسند الحديث إلى عادل، الذي عدّد أبرز فوائد التفكير الجماعي، فقال: "لا شك في أن للتفكير الجماعي فوائد جمة؛ يقول نيوتن مثلاً: "أنا وقفت على أكتاف

الآخرين"، بمعنى إن ما وصل إليه من معرفة، إنما بناه على ما وصل إليه الآخرون. والتعليم كما نعرف عملية فردية اجتماعية، كما عرض زميلنا سند في بداية هذا اللقاء. وبالتالي فالتفكير الجماعي مهم لأسباب عديدة، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

١. تجميع القوى الذهنية لأعضاء الفريق لتتفاعل معًا، مما يُسفِر عنه نتائج تعلّم أفضل.
٢. يُتيح لأعضاء الفريق فرص اكتساب مهارات مختلفة، وذلك عن طريق المشاركة الجماعية فى أوجه النشاط المختلفة أثناء التفكير معًا.
٣. زيادة الاعتماد المتبادل، بمعنى حاجة ورغبة أعضاء الفريق في تنمية روح التعاون والمساعدة والدعم المتبادل فيما بينهم.
٤. يتيح توفر خبرات متنوعة بين أعضاء الفريق في إثراء خبراتهم فيما بينهم.
٥. يساعد على تحقيق الأهداف الكبيرة؛ من خلال عمل الأفراد بتكامل وتناغم.
٦. يساعد على التوصل إلى أفضل الحلول للمشكلات، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، وأفضل الأفكار وأكثرها عددًا بشكل أسرع وأفضل .

"الاعتماد على الآخرين ضعف، والاعتماد على النفس قوّة، والاعتماد المتبادل هو قمّة القوّة"

(ستيفن كوفي)

تنمية التفكير الجماعي

بعد أن أستكمل عادل تلخيص فوائد التفكير الجماعي، تحدث سند، فقال: "يتيح التفكير الجماعي فرصًا كثيرةً أمام المتعلّمين لعرض أفكارهم، ومناقشتها، ونقدها وتحسينها، واختبارها، ويوفر لهم تغذية راجعة مفيدة، مما يساعد على النمو الذهني والعقلي للجميع".

وأضاف: "بالتالي، فإن على المناهج الدراسية أن توفر فرصًا وفيرةً للمتعلّمين لتنمية التفكير الجماعي، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق التعلّم التعاوني عند إشراك الطلاب في أنشطة التعلّم، وفي العمل الجماعي التعاوني المدرسي من خلال اللجان الصفية والمدرسية. فلقد وجد الباحثون أن العمل التّعاوني والتعلّم التعاوني، يوفران فرصًا مهمة ليس فقط لتنمية التفكير الجماعي عند المتعلّمين، ولكن – أيضًا– لتنمية عادات تفكير منتج أخرى، تشمل: حُسن الإصغاء، ومرونة التفكير، والتساؤل وطرح المشكلات".

واستطرد شارحًا: "فكما تعلّمون، فإن التعلّم التعاوني هو أسلوب تعليمي يقوم على تنظيم طلاب الصف في مجموعات صغيرة، يتكون كل منها من أربعة أفراد على الأقل، يتعاون أعضاء كل مجموعة مع بعضهم، ويتفاعلون فيما بينهم، ويناقشون الأفكار، ويستمعون لحلِّ المشكلات، بهدف إتمام المهمة التي يكلفون بها، ويكون كل فرد في المجموعة مسؤولاً عن تعلّمه وتعلّم زملائه، وعن نجاح المجموعة في إنجاز المهام التي كلفت بها. ويتحدد دور المعلم في التوجيه والإرشاد، وتشجيع المتعلّمين والإجابة عن أسئلتهم، وتوزيع الأدوار على كل متعلّم في المجموعة".

وأضاف سند: "ويتميز التعلّم التعاوني بقدرته على توفير فرص تعلّم وفيرة للمتعلّمين، لكن ذلك يتطلب من واضعي المناهج والمعلمين إعداد أنشطة تعلّم تعاوني دقيقة بحيث تكون تعاونية وتبادلية بين أعضاء الفريق، ويجب أن يسند المعلم جزءًا من النشاط لكل متعلّم، كي لا يطغى على النشاط قلة من المتعلّمين، ولابد من أن يكون واضحًا لأعضاء الفريق أن يتحمل كل فرد مسئولية تعلّمه وتعلّم بقية زملائه في الجزء الذي يخصص له. وهذا يوفر للمتعلّمين فرص التعلّم من بعض؛ إذ يمتاز المتعلّمون بأن خبراتهم متنوعة فيتبادلون تلك الخبرات، فضلاً عن كونهم يستخدمون مفردات لغوية في مستوى أقرانهم مما يمكنهم من نقل الخبرة لأقرانهم بصورة أفضل حتى من المعلمين أنفسهم".

وفي الأخير، تحدثت إلهام عن كيفية تنمية التفكير الجماعي عند المتعلّمين، فقالت: "يساعد التفكير الجماعي في تنمية قدرة المتعلّمين على تبرير الأفكار، واختبار مدى صلاحية إجراءات الحلول، وتقبل ملاحظات الأقران، والتفاعل، والتعاون، والعمل ضمن مجموعات، والإسهام في المهمة من خلال الأقوال الدالة (مثل: ما رأيك في، لو ساعدتني، فعلاً إنى أرى) أو الأفعال الدالة (مثل: الاحتفال بالنجاح المشترك، إبراز وجهة نظر الآخرين)".

ثم لخصت استراتيجيات تنمية التفكير الجماعي عند المتعلّمين، التي ترتكز على التعلّم التعاوني، وهي:

١. تدريس أفكار معينة للعمل مع الآخرين، مثل الاستماع النشط واستنطاق أعضاء المجموعة الهادئين.
٢. تسجيل الملاحظات أثناء عمل المتعلّمين في مجموعات صغيرة، وتلخيص الأشياء الجيدة والسيئة التي تمّت ملاحظتها أثناء التدريس.
٣. تعليم المتعلّمين استراتيجيات حل المشكلات، كلما كان ذلك ممكنًا.
٤. تسليط الضوء على إنجازات المجموعات الناجحة، والإشارة إلى الاستراتيجيات التي استخدموها في العمل.

في الختام، شكر سند زملاءه على تلك الإسهام المهمة، ثم لخص أبرز ما نوقش في اللقاء في النقاط الآتية:

١- يستمد تطور الفرد العقلي من التفاعلات الاجتماعية التي يجريها، في إطار من المعاني الثقافية المستمدة من المجموعة وتفاعلها مع الفرد؛ وذلك لأن تعلّم الأفراد كمجموعة يفوق تعلّم كل منهم على حده، كما أن تعاون الأفراد يجعل تعلّم كل منهم أفضل وأكثر فاعلية من تعلّم كل منهم منفردًا.

٢- يكتسب المتعلّمون من خلال التفكير الجماعي معلومات مناسبة، ونماذج واستراتيجيات تفكير جديدة فاعلة من خلال تفاعلاتهم وحواراتهم مع أقرانهم؛ إذ

يكتسبون عبر مبادلاتهم الأفكار الجماعية استراتيجيات جديدة يستخدمونها في اتصالاتهم.

٣- يُلاحظ على كثير من المتعلّمين في الوقت الراهن، أنهم غير قادرين على العمل ضمن مجموعة، بسبب ضعف مهاراتهم الاجتماعية، فيفضلون العمل الفردي؛ وهذا مؤشر سلبي، لأنه يقلل من فرص أولئك المتعلّمين في الاستفادة من أقرانهم. وهو ما يعدُّ مخالف للطبيعة الإنسانية، وطبيعة نمو المعرفة وتراكمها.

٤- يساعد التفكير الجماعي في تنمية قدرة المتعلّمين على تبرير الأفكار، واختبار مدى صلاحية إجراءات الحلول، وتقبل الملاحظات من الأقران، والتفاعل، والتعاون، والعمل ضمن مجموعات.

٥- يُعدُّ التعلّم التعاوني أفضل أساليب التدريس التي تنمي التفكير الجماعي عند المتعلّمين؛ إذا ما طبق بطريقة سليمة.

التفكير الجماعي



يعني قدرة الفرد على التفكير باتساق مع الآخرين، والتواصل بشكل مباشر معهم وتلمس احتياجاتهم، والقدرة على تبرير الأفكار، واختبار مدى صلاحية استراتيجيات الحلول عند الآخرين، والإصغاء، والتفهم والتعاطف، والسعي وراء رأي جماعي جيد، والتخلي عن فكرة ما من أجل العمل على فكرة شخص آخر، والقيادة الجماعية والإيثار.

عادات التفكير المنتج العليا

" إن الحياة الخالية من التفكير والاختبار
لا تستحق أن تعاش".
(سقراط)

عُقد هذا اللقاء لمناقشة أولى عادات التفكير المنتج العليا، وهي التفكّر. وفي بداية اللقاء استأذن عادل – الذي نسق للاجتماع – زملاءه لعرض مقدمة عامة حول عادات التفكير هذه، فقال: "عادات التفكير المنتج العليا هي عادات غير تقليدية ومعقدة، تهدف إلى تمكين الفرد من التقدم خطوة أكبر إلى الأمام، لتنمية تفكيره، واكتساب المعرفة وإنتاجها. وتشتمل على: التفكّر، ومرونة التفكير، وتحمل الغموض، والمخاطرة المسؤولة. وهي تشكّل طريق الفرد في التعامل مع أدوار الحياة المختلفة التي يناط به تحمل مسئوليتها. فأي كان الدور الذي يؤديه الفرد في الحياة: متعلّم؛ معلم، قيادي، مهني؛ زوج أو زوجة؛ أب أو أم؛ فإن عادات التفكير المنتج العليا ستنير دربه في هذه الحياة شديدة الغموض، إنها تساعده على تشكيل سلوكاته الذكية ليؤدي أداءً أفضل في كل من هذه الأدوار".

التفكر

"لقد تم التفكير في كل الأفكار الحكيمة آلاف المرات؛
ولكن لتصبح أفكارنا نحن، علينا أن نفكّر فيها مرة أخرى بعمق،
حتي تتغلغل جذورها في أعماق تجاربنا".
(جوهان جوته)

بعد عرضه السابق طلب عادل من قائد الحديث عن التفكّر، فقدم الأخير عرضاً وافيًا قام فيه بوصف التفكّر والشخص المتفكّر وخصائصه، قائلاً: "يحتاج الفرد لكي يصبح مفكّرًا إلى امتلاك شيء جوهري جدًّا، هو رؤية نقدية للماضي والحاضر؛ وينبغي أن تستند هذه الرؤية إلى جوانب القصور التي تظهر في الأفكار والأشياء والأفعال والأحكام في كل زمان ومكان. وهذا نشاط فكري مجرد يصعب على كثير من الأفراد القيام به، لذلك ينبغي التدرب عليه تدربًا جيدًا".

وأضاف: "يُقصد بالتفكّر، أو ما يسمى أحيانًا بالتأمل بأنه: التفكير في المعلومات والمعارف بعناية ونشاط ومثابرة في ضوء الأسس التي تدعم هذه المعلومات والمعارف والنتائج التي تقود إليها".

وعن خصائص الشخص الذي يمارس عملية التفكر أوضح قائد: "يتصف الشخص الذي يمارس عملية التفكّر أو التأمل بأنه فضولي بطبعه، يتصف بأنه لا يدّعي امتلاك إجابات عن جميع الأسئلة التي تواجهه، كما أنه لا يتردد في الإقرار بذلك. إنه شخص يتصف بصفات كثيرة، منها: امتلاك ثقة كافية بنفسه وبقدرته على قبول التحديات بطريقة غير عادية، وعدم الشعور بالخوف من طرح تفكيره الخاص وجعله خاضعًا للنقاش، والإصغاء الجيد، والثقة في الآخرين وفي قدراتهم على اتخاذ القرارات الصحيحة إذا أعطوا الفرص المناسبة، والمقدرة على رؤية الأشياء من وجهات نظر متعددة، وتلمس حاجات الآخرين وتفهم مشاعرهم، والثقة بقدرات الآخرين على تحمل مسؤولية تعلّمهم والتعلّم من أخطائهم".

ثم انتقل الحديث إلى سند الذي أضاف صفات أخرى للشخص المفكّر، فقال: "أستطيع أن أضيف ثلاث صفات رئيسة للفرد المتفكّر، هي: التحرر العقلي، والمسؤولية، والإخلاص. ويعني التحرر العقلي رغبة الفرد النشطة في الاستماع لأكثر من وجهة نظر، والاستماع إلى الحقائق مهما كان مصدرها، وتقبل الآراء الأخرى التي قد تخطئ أفكاره. وهذا مفيد كونه لا يوصد باب التفكير أمام المتفكّر فيما يستجد مهما كان مصدره. أما المسؤولية، فيُقصد بها تحمل مسؤولية نتائج الأفعال، بمعنى أن الفرد يكون مستعداً لتحمل مسؤولية نتائج أفعاله مهما كانت. أما الإخلاص، فهو الالتزام بالتحرر العقلي والمسؤولية، وهو أساس عملية التفكّر.

أهمية التفكّر

بعد أن أكمل سند حديثه حول صفات المفكّر، تحدث عادل قائلاً: "تعلـّمون أن للتفكّر فوائد عديدة، فهو ينقل الفرد من موقع المتلقي السلبي إلى موقع المتفكّر الإيجابي الناقد، بما يساعده على إشباع فضوله المعرفي، وتلبية حاجاته المعرفية. وهناك فوائد أخرى للتفكّر، تتمثل في أنه:

- يساعد الفرد على تكوين فهم أعمق لما يعرفه أو يفهمه، وأساليب تعلّمه.
- يساعد الفرد على زيادة فعالية أدائه.
- يساعد على اختبار مصداقية أفكار الفرد ومعارفه.

أي أن التفكّر يمنح الفرد فرصة لمراجعة معارفه، وبلورة صورة أوضح حولها؛ بما يسهم في تعديلها أو تنقيحها، بحيث تترسخ في ذهنه".

تنمية التفكّر

استعرضت بعد ذلك مُهجة مستلزمات تنمية عملية التفكّر، فقالت: "تستلزم عملية تنمية التفكّر تحدي قدرات المتعلّمين أثناء دراسة المعلومات المقدمة إليهم، وإثارة تساؤلات حول صلاحيتها، ومن ثم استخلاص النتائج في ضوء ذلك. والتفكّر عملية

مستمرة تستلزم تقليص الحلول الممكنة للتوصل في نهاية المطاف إلى حلّ موثوق به. وينتج عن عملية التفكّر الوصول إلى فَهم أفضل لمفهوم ما أو موضوع معين. كما يستلزم التفكّر استخلاص الدروس من خبرات التعلّم، وإعادة تقييم معارف المتعلّمين السابقة للتوصل إلى معارف جديدة أكثر موثوقية".

وفي الأخير، تحدثت إلهام حول تنمية التفكّر عند المتعلّمين بنوعيه: التفكّر الموجه، والتفكّر المفتوح، وقالت: "التفكر الموجه هو طريقة لاستخلاص معنى من المواقف المعتادة في إرشادات الكتاب أو المعلم، حيث يقوم المتعلّم، خلال عملية التعلّم، بتسجيل ملاحظاته، والتفكّر فيها للتوصل إلى نتائج دقيقة. ولذلك فهو بحاجة إلى أدوات معرفية تساعده على اتخاذ القرارات المناسبة، مثل الملاحظة، واليوميات، ومذكرات التفكّر. كما يقوم المتعلّم خلال التفكّر بالتفكير في معارفه السابقة، للتعرّف على الخيارات المتاحة لاتخاذ القرار المناسب. ويمكن تشجيع الطلاب على التفكر الذاتي، من خلال تكليفهم فرديًّا بالتفكير حول مدى فهمهم لموضوع أو مفهوم أو فكرة تمَّ تعلّمها، ومقارنة ذلك مع مفاهيم أقرانهم".

وحددت صورتين تتم بهما عملية التفكر: "كما تعلّمون، يمكن أن تتم عملية التفكر إما بصورة فردية، أو بصورة جماعية. ومن أبسط أدوات التفكّر الفردية هي الملاحظة؛ بوصفها عملية هادفة يقوم بها المتعلّم بصبر وأناة، بغية معرفة جانب من جوانب تعلّمه، والبحث في تفصيلاته".

وذكرت بأنه يمكن أن تشمل الملاحظة الآتي:

- مواقف أو مشكلات صفية محددة.
- مواقف أو مشكلات تتعلق بتعلّم مفاهيم معينة.
- مواقف أو مشكلات حول الصعوبات التي تواجه عملية التعلّم.

أما بخصوص الصورة الثانية التي تتم بها عملية التفكر، فأوضحت: "بالنسبة للتفكر الموجه الجماعي، فيلتقي المتعلّمون في مجموعات ما بين ثلاثة إلى خمسة في كل

مجموعة لمناقشة موضوع يهمهم جميعًا يتفكرون حوله؛ ثم تعرض كل مجموعة نتيجة ما توصلت إليه على بقية طلاب الصف".

وفي ختام اللقاء، شكر عادل زملاءه على هذه المشاركة الإيجابية، وطلب من زميلهم منير أن يعرض ملخصًا للقاء، الذي أوجز نتائجه على النحو الآتي:

١- يتصف الشخص المتفكّر أو المتأمل بصفات كثيرة أهمها: أنه شخص فضولي بالفطرة، لا يدّعي بأنه يمتلك إجابات عن جميع الأسئلة التي تواجهه، كما أنه لا يخاف من الإقرار بذلك.

٢- ينقل التفكّر الشخص من موقع الشخص المتلقي السلبي إلى موقع الشخص الإيجابي الناقد، مما يساعده على إشباع فضوله، وتلبية حاجاته المعرفية.

٣- يستلزم تنمية التفكّر تحدي قدرات المتعلّمين أثناء دراسة المعلومات المقدمة لهم، وإثارة تساؤلات حول صلاحيتها لاستخلاص النتائج.

٤- يمكن تنمية التفكر بدءًا بالتفكر الموجه، وانتهاءً بالتفكّر المفتوح. ويعرّف التفكر الموجه بأنه طريقة لاستخلاص معنى من المواقف المعتادة في إرشادات الكتاب أو المعلم.

٦- يمكن أن تتم عملية التفكّر، إما بصورة فردية، أو بصورة جماعية. ومن أبسط أدوات التفكّر الفردية هي الملاحظة. كذلك من أبسط صور التفكّر الجماعية هي المناقشات.

التفكر



يعني القدرة على إدارة التفكير بشكل يحقق الأهداف المرجوة، وهو بهذا يتضمن الوعي بالمعرفة المكتسبة وطريقة تعلّمها، والقدرة على تنظيمها.

مرونة التفكير

"ليس أقوى أفراد النوع هو الذي يبقى ولا أكثرهم ذكاء،
بل أقدرهم على التأقلم مع التغيرات".
(تشارلز دارون)

التقى عادل وزملاؤه لمناقشة (مرونة التفكير) في ضوء برنامجهم المتفق عليه. وفي بداية اللقاء، استهل عادل الحديث بالقول: "يُعدُّ التفكير بمرونة من أصعب عادات التفكير المنتج على الناس؛ وذلك لأنه ليس من السهولة تطبيقها؛ فالفرد الذي يعتاد على فكرة قديمة، وعلى رؤية الأشياء من خلالها، يصعب عليه تغيير تلك الفكرة بسهولة. وهي تسمح بالانفتاح على الأفكار الجديدة، التي تسهم في تقدم المعرفة البشرية. ولا تعني الاستسلام والتخلي عن الأفكار، وإنما هي طريقة مغايرة لنقول نعم للحياة، فننظر إلى المواقف والمشكلات، ليس فقط من زاوية واحدة هي تلك التي نتبناها نحن، بل من زوايا عدة يتبناها آخرون".

ثم تناول قائد الحديث وقدم تعريفًا دقيقًا لمرونة التفكير، قائلاً: "يُقصد بمرونة التفكير: التمتع بأقصى قدر من السيطرة، وامتلاك الاستعداد لتغيير الآراء عند الحصول على بيانات أو معلومات جديدة، وممارسة المرونة من خلال تقدير متى يكون التفكير واسع الأفق ملائمًا، ومتى يتطلب الموقف دقة تفصيلية، وابتكار مقاربات جديدة والسعي إليها".

وأضاف: "التفكير بمرونة مهم؛ لأنه يساعد على التكيف والانسجام في إيجاد بدائل وخيارات في أسلوب تعاملنا بنجاح مع الأشخاص، والمتغيرات، والمواقف المختلفة".

أهمية مرونة التفكير

بعد ذلك انتقل الحديث إلى سند الذي وضح أهمية مرونة التفكير، فقال: "تكمن أهمية مرونة التفكير في أنه السبب الحقيقي وراء ذكاء وتفوق الأشخاص الاستثنائيين

بيننا وتميزهم؛ لأنه المولّد الفعلي للأفكار والحلول والبدائل والفرص والإبداع. وتُعد مرونة التفكير الطريقة الفضلى لمواجهة الظروف والتغيرات غير المرغوب فيها، وتتمثل في قدرة الفرد على التكيف مع المتغيرات العديدة التي يواجهها الناس دومًا والتأقلم مع كل ما هو جديد".

ثم عدد خمس نقاط، تبرز أهمية مرونة التفكير لأي شخص مفكّر، وهي:

١ - المرونة ضرورية لتحقيق الأهداف بنجاح، فكل شخص يحتاج أن يحدد أهدافه بوضوح، لكن عليه أن يكون مرنًا عندما يطبق الخطوات الضرورية لتحقيق الأهداف. فكلما كان الشخص مرنًا في استخدام الخطوات الضرورية لتحقيق الأهداف، زادت فرص تحقيقها؛ إذ إن المرونة تمنح الفرد القدرة على التكيف والتأقلم مع الظروف المتغيرة، عندها يمكن أن يغير الفرد المهام والخطوات غير الواقعية أو غير القابلة للتنفيذ.

٢ - الشخصية المرنة كالماء لا يمكن مقاومتها أو هزيمتها، فهي قادرة على هزم العناد والصلابة في المواقف.

٣ - الشخصية المرنة لا تخضع بسهولة ولا تستلم أبدًا، فهي تبحث عن المنافذ المناسبة لتعبر إلى الطرف الآخر.

٤ - المرونة هي الطريقة الفضلى التي تحمي الفرد من الانكسار أمام المواقف الصعبة؛ فالفرد يواجه في حياته، غالبًا، الكثير من المواقف الصعبة التي لا تُحسم دومًا وفقًا لرغباته أو أهدافه، لذلك فإن الطريقة الفضلى لمواجهة الظروف والتغيرات غير المرغوب فيها هي امتلاك مرونة التفكير؛ لأنها تساعده على التكيّف مع التغيرات التي يواجهها، والتأقلم مع الجديد من دون أي خسارة نفسية.

الشخصية الناجحة هي الشخصية المرنة وليست الصارمة، فالفرق بين الشخصية المرنة والشخصية الصارمة، هو أن الأولى تكون أكثر مقدرة على تحديد الأوقات المناسبة لتكون حازمة؛ بينما الثانية لا تكون فقط أقل معرفة بالأوقات المناسبة لتكون مرنة، بل

هي -أيضًا- لا تعرف حتى كيف تستخدم المرونة كتطبيق عملي في الحياة. والشخصية المرنة تمتلك الوعي الكافي الذي يجعلها تعرف تمامًا متى تكون بحاجة لأن تكون حازمة.

> "إذا كانت الأداة الوحيدة المتوافرة لديك هي المطرقة، فستعامل العالم كله على أنه مسمار".
>
> (إدوارد دي بونو)

تنمية مرونة التفكير

ثم تحدثت مُهجة عن مرونة التفكير من منظور نفسي، فقالت: "يصعب على كثير من المتعلّمين النظر، في آن واحد، في وجهات نظر متعددة، أو التعامل مع أكثر من طريقة لحلِّ المشكلات، أو تصنيف مجموعة من الأشياء بأكثر من تصنيف. فهم لا يرون إلا طريقة واحدة هي تلك التي تعودوا عليها. لذلك ينبغي على المناهج الدراسية والمعلمين تدريب المتعلّمين على ذلك، بهدف تنمية مرونة التفكير لديهم".

ثم ذكرت المثال التالي الذي يقارن بين سلوك الذبابة وسلوك الفأر لتوضح المرونة في التفكير: "عندما تحاول ذبابة الخروج من نافذة زجاجية شفافة، فإنها سرعان ما تصطدم بالزجاج؛ ولأنها لا تتعلّم الدرس، تظل تعيد المحاولة من دون توقف حتى تخور قواها وتهلك؛ بينما لو فكرت قليلاً لاقتنعت أن هذا الطريق مسدود أمامها. بينما يختلف نمط تفكير الفأر عن الذبابة؛ فقد وجد أنه عند وضع فأر في متاهة، ووضعت له قطعة جبن في نقطة معينة، ظلَّ الفأر ينطلق كل مرة نحو الجبنة ويأكلها؛ وعندما حُولت قطعة الجبن إلى مكان آخر، ذهب الفأر كعادته ولم يجد شيئًا، لكنه لم يُعد المحاولة من دون توقف كما تفعل الذبابة، بل بدأ يبحث عن طرق جديدة حتى توصل إلى المكان الذي

وضعت فيه قطعة الجبن. لهذا، إذا فعل شخص الشيء نفسه بالطريقة نفسها، فإنه يحصل دائماً على النتيجة نفسها كل مرة يعيد فيها المحاولة نفسها".

وفي الأخير، تحدثت إلهام ولخصت استراتيجيات تنمية مرونة التفكير لدى المتعلّمين، وذكرت بأن هناك استراتيجيات عديدة لتنمية مرونة التفكير عند المتعلّمين، وأن من أهم الاستراتيجيات تلك التي تتمحور حول تنوع الأفكار أو الاستجابات، وتشمل:

١ - تدريب المتعلّمين على تصنيف مجموعة من الأشكال وفق خصائص مختلفة، مثل: الشكل، أو اللون، أو الحجم.
٢ - تدريب المتعلّمين على حلِّ مسائل حسابية بأكثر من طريقة.
٣ - تدريب المتعلّمين على كتابة مقالات قصيرة لا تحتوي، مثلاً، على أي فعلٍ ماضٍ.
٤ - تصنيف البلدان وفق أكثر من متغير، مثل: المساحة، عدد السكان، الثروة، الدين، اللغة.
٥ - عمل سيناريوهات لمواقف تحتمل أكثر من طريقة أو نهاية.
٦ - كتابة قصص بدون نهاية، وإلزام المتعلّمين بكتابة نهايات لها، وعرض كل ما يكتبه الطلاب على الصف لمناقشته.

وفي الختام، استأذن عادل زملاءه، ليقدم ملخصاً لأهم ما ورد في اللقاء، والذي أوجزه في الآتي:

١ - يُقصد بمرونة التفكير: التمتع بأقصى قدر من السيطرة، وامتلاك الطاقة لتغيير رأي الفرد عند الحصول على بيانات أو معلومات جديدة.
٢ - تساعد المرونة على الانفتاح على الأفكار الجديدة التي أسهمت في تقدم المعرفة البشرية.
٣ - تكمن أهمية مرونة التفكير في أنها السبب الحقيقي وراء ذكاء وتفوق وتميز الأشخاص الاستثنائيين بيننا؛ لأنها المولّد الفعلي للأفكار والحلول والبدائل والفرص والإبداع.

٤ - يصعب على كثير من المتعلّمين النظر، في آن واحد، في أكثر من وجهة نظر. فهم لا يرون إلا طريقة واحدة هي تلك التي تعودوا عليها. لذلك ينبغي على المناهج الدراسية توفير فرص تعلّم متنوعة تنمي لدى المتعلّمين مرونة التفكير.

٧- يمكن تدريب المتعلّمين على تنمية مرونة التفكير عبر طرقٍ عديدة؛ بما يساعدهم على تنمية تفكيرهم وتحقيق تعلّم أفضل.

مرونة التفكير



تعني التمتع بأقصى قدر من السيطرة، وامتلاك الطاقة لتغيير رأي الفرد عند الحصول على بيانات أو معلومات إضافية أو جديدة، والانشغال في مخرجات وأنشطة متعددة في آن واحد.

تحمل الغموض

" أجمل إحساس هو الغموض، إنه مصدر الفن والعلوم".
(البرت اينشتين)

نسق قائد لآخر لقائين يناقشان عادتي التفكير المنتج التاسعة والعاشرة. وفي بداية هذا اللقاء، استهل الحديث بعرض مقدمة عامة عن تحمل الغموض، فقال: "تميل الطبيعة البشرية إلى الأمور السهلة والواضحة، وتنفر من الأمور الصعبة والغامضة، رغبةً في توفير الوقت والجهد وحتى التفكير. لذلك فإن المتعلّمين بحاجة ماسة إلى تعلّم التفاعل مع المواقف الصعبة والأفكار الغامضة؛ لأن الصحيح أن عقولنا لا تكبر، وأفكارنا لا ترتقي إلا من خلال التعامل مع التحديات والمشكلات، التي تتطلب منها نشاطًا عقليًّا استثنائيًّا. فقد قال أحد المفكرين الكبار: "قليل من المعاناة تولّد الإبداع"، وهو يقصد هنا، على ما أظنُّ، المعاناة الفكرية".

ثم نقل الحديث إلى منير، الذي تحدث قائلاً: "يُجمع المفكرون على أن تحمل الغموض واقتحام المجهول هو الحياة، تلك الحياة المفعمة بالمغامرة والاكتشاف، أما الاكتفاء بالمعلوم فهو الموت، كما أن قبول الحياة كما هي، يجعلها حياة تفتقر إلى الإثارة والتشويق. وكما تعلّمون فإن الاكتفاء بالمعلوم يعني ضُعف الهمة والامتناع عن استكشاف العالمين المادي والاجتماعي المحيطين بالإنسان. إذ إن الإنسان بتقبله الغموض واقتحامه المجهول، يؤكد على قدرته على الصمود في وجه عدم اليقين، وتحمل الانزعاج من وضع غامض يحتوي على قدر كبير من التعقيد، وربما التناقض".

وأوضح منير: "خلاصة القول: إن الذي يخشى المجهول ويرتبك أمام الأمور الغامضة، يبقى في موقعه ثابتًا لا يتجدد مكتفيًا بحالته المألوفة؛ لكن من يخوض في المجهول، يستطيع أن يبدد عتمة المجهول واستكشاف ما بداخله برؤية أخرى مختلفة. وهذا يزيد من قدرته على التفكير ويساعده على تحقيق تعلّم أفضل".

الغموض يوجد التعجب، والتعجب هو أساس رغبة الإنسان في المعرفة.

أهمية تحمل الغموض

ثم تحدث عادل مبيناً أهمية تحمل الغموض، فقال: "تتضح أهمية تحمل الغموض في التعليم وتنمية التفكير؛ لأنه يشجع المتعلّمين على استكشاف المجهول في العالمين المادي والاجتماعي المحيطين بهم، وهذا يسرّع من تعلّمهم وينمي تفكيرهم".

وأوضح: "من أمثلة تحمل الغموض، واكتشاف المجهول، ما قام به العالم "تشارلز دارون"، الذي ترك دراسة الطب واللاهوت، والتحق سنة ١٨٣١م بالباخرة الاستكشافية التي دارت حول الأرض في خمس سنين، وعمره يومئذ اثنان وعشرون عاماً. فلقد سجّل ملاحظاته عن الكائنات الحيّة في القارات والجزر والبحار في بيئات مجهولة، وفي رحلة غامضة بالنسبة له، لكنه نجح في وضع نظرياته في أصل الأنواع، وفي النشوء والارتقاء، والانتخاب الطبيعي، كل ذلك قبل الاكتشافات العظيمة التي وصل إليها الإنسان في عالم الجينات اليوم".

ثم تقدم سند وبيّن دور المناهج في تنمية الغموض عند الطلاب، فقال: "تبرز أهمية تحمل الغموض بصورة خاصة في بلدان مثل بلادنا التي تتعاصفها الأحداث بصورة محيرة، وكذلك بسبب التغيرات العالمية المتسارعة التي تجعل الفرد يقف أمام العديد من التساؤلات التي تحيره؛ لذلك فإن تحمل الغموض يساعد الفرد على أن يكون مستعداً لاحتمالات كثيرة، ومن ثم فإن عليه التدرّب على كيفية التعامل معها وفق المستجدات. وهنا يقع الدور على المناهج الدراسية التي ينبغي أن تتضمن أنشطة تحمل صفة الغموض لمساعدة المتعلّمين على استكشافها والتوصل إلى نتائج".

واستطرد سند: "وأضيف إلى ما أورده زميلي عادل حول الغموض، مثالاً آخر من هولندا يتصل بالعالم "ليفون هوك"، الذي على الرغم من أنه لم يكُن له من الدراسة إلا

حظ يسير؛ فقد كان شغوفًا بالعدسات، مشتغلاً بها بانهماك، يطغى عليه حبّه لاكتشاف المجهول، فقضى سنين عديدة من عمره لاكتشاف كائنات أصغر مما تراه العين المجردة، ومكث في بحثه هذا سنين عدة، حتى توصل لاكتشاف الكائنات الدقيقة عام ١٦٧٤م، والتي تسمى اليوم الجراثيم".

تنمية تحمل الغموض

بعد ذلك انتقل الحديث إلى مُهجة التي وصفت أمور أعمق، فقالت: "يتصف كثير من المتعلّمين بأن لديهم خوف من المجهول، أو عدم القدرة على تحمّل الغموض، والخوف من ارتكاب الأخطاء مما يتطلب تنمية تلك القدرات لديهم. ويمكن للمعلم أن يشرح للمتعلّمين أهمية التعامل مع المجهول عند البحث عن المعرفة، وضرورة ذلك لتنمية معارفهم. لذلك يلزم أن يقوم المعلمون بدور كبير في تنمية تحمل الغموض لدى المتعلّمين، فهم يستطيعون تدريبهم على تصور بعض النماذج الغامضة واكتشاف خصائصها، ومن ثم قولبتها وتنظيمها".

وفي الأخير، جاء دور إلهام فشرحت كيفية تنمية تحمل الغموض قائلة: "يمكن تنمية تحمل الغموض عند مناقشة الظواهر الطبيعية، والظواهر الاجتماعية، وكذلك عمليات التفاعل الاجتماعي. ويُعد التعلّم بالاكتشاف أفضل الطرق لتعليم عادة التفكير هذه. ويمكن اختيار ظواهر تستثير اهتمامات المتعلّمين، بحيث تدفعهم إلى التساؤل، والبحث عن تعليل أو تفسير، مثل الحوادث أو الظواهر الغامضة أو غير المعروفة، أي التي لا يعرفون أسبابها، أو تفسيرات لها. ولكن يشترط في ذلك الآتي:

١ - أن تكون الظاهرة المستهدفة، على درجة من الأهمية والغموض في آنٍ معًا، بحيث تستثير دهشة المتعلّمين أو استغرابهم على نحو يحول من دون ظهور اللامبالاة لديهم.

٢ - أن تنظم أسئلة المتعلّمين بحيث تكون من النوع الذي يمكن أن يجيب عنه المعلم بكلمة نعم أو لا، لكي يتجنب تفسير، أو تعليل الظاهرة موضع الاهتمام، وعلى المعلم أن يوجه أسئلة المتعلّمين، بحيث تتحول إلى فرضيات أولية يمكن التحقق من صدقها.

٣ - إدارة حوار تعليمي على نحو يمكّن المتعلّمين من تحديد حقائق الظاهرة موضوع البحث، وشروط حدوثها، وتنظيم هذه الحقائق على نحو منطقي يسهل عمليات التفسير والضبط والتوقع".

وفي الختام، شكر قائد زملاءه، واستأذنهم في تلخيص الأفكار الرئيسة للقاء. والتي لخصها على النحو الآتي:

١ - يؤكد الإنسان عند تقبله الغموض واقتحامه المجهول، على قدرته الصمود في وجه عدم اليقين، وتحمل الانزعاج من وضع غامض يحتوي على قدر كبير من التعقيد، وربما التناقض.

٢ - تبرز أهمية تحمل الغموض في أنه يشجع المتعلّمين على استكشاف المجهول في العالمين المادي والاجتماعي المحيطين بهم، مما يسرّع من تعلّمهم وينمي تفكيرهم.

٣ - تزداد أهمية تحمل الغموض بصورة خاصة في بلادنا التي تتعاصفها الأحداث بصورة محيرة، وكذلك بسبب التغيرات العالمية المتسارعة التي تجعل الفرد يقف أمام العديد من التساؤلات التي تحيره.

٤ - يتصف كثير من المتعلّمين بأن ليس لديهم القدرة على تحمّل الغموض، أو أن لديهم خوفًا من المجهول، وخوفًا من ارتكاب الأخطاء مما يتطلب تنمية تلك القدرات لديهم.

-٨ يمكن تنمية تحمل الغموض من خلال اختيار ظواهر تستثير اهتمامات المتعلّمين، بحيث تدفعهم إلى التساؤل والبحث عن تعليل أو تفسير، مثل الحوادث أو الظواهر الغامضة أو غير المعروفة، أي التي لا يعرفون أسبابها أو لا يجدون تفسيرات لها.

تحمل الغموض



يعني التمتع بقدرة فائقة على الصبر وتحمل المشكلات أو المواقف الغامضة؛ من أجل الوصول إلى حلول جديدة.

المخاطرة المسؤولة

" دائماً ما تكون السفينة آمنة على الشاطئ،
ولكن ليس هذا هو ما صنعت من أجله".
(البرت أينشتين)

في اللقاء الذي خُصص لمناقشة عادة التفكير المنتج الأخيرة، بدأ قائد حديثة بشكر زملائه على المثابرة والإصرار على مواصلة اللقاءات من دون تغيب لاستكمال المهمة التي تعهدوا باستكمالها، ثم عرض مقدمة عن المخاطرة المسؤولة قال فيها: "يشير الإقدام على القيام بمخاطرة مسؤولة إلى وجود دافع قوي لدى الشخص تصعب السيطرة عليه، مما يدفعه إلى الانطلاق نحو ما وراء الحدود المستقرة، ويتسبب ذلك في تجاوز حالة الهدوء لدى الشخص؛ لأنه يواجه مواقف لا يعرف النتائج التي ستتمخض عنها، كما يقبل الارتباك والتشويش وعدم اليقين وارتفاع مخاطر الفشل؛ لكنه ينظر إلى أي فشل على أنه مثير للاهتمام وينطوي على تحدٍ؛ وهذا كله يساعد على التعلّم وتنمية التفكير".

ثم أتاح قائد الحديث لمنير ليضيف ما عنده عن المخاطرة المسؤولة، فأوضح قائلاً: "سأبني على ما قاله زميلي قائد، وأقول بأن المخاطرة المسؤولة تتمثل في تقبل الفرد بذل جهود صادقة ودؤوبة لاستكشاف العالم المحيط به، وامتلاك الشجاعة لتحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها والنتائج المترتبة عليها. وهي ترتبط بعادة تحمل الغموض، حيث إن المخاطرة تتعلق بقدرٍ كبيرٍ من الغموض، ولكنه غموض محسوب في ضوء معارف الفرد السابقة. وفي التعليم، يقصد بها وضع المتعلّمين في مواقف تتضمن قدراً معقولاً من الغموض، مما يتطلب من المتعلّمين المخاطرة في استكشاف المجهول".

أهمية المخاطرة المسؤولة

ثم انتقل الحديث إلى مُهجة، فأوضحت قائلة: "نعلم أن كثيراً مَن الناس يختارون الحياة الخالية من المخاطرة؛ لأنها ببساطة مريحة، لكنهم يخسرون الكثير، فهم يفقدون

روح المغامرة ومتعة النجاح، ويخسرون التعلّم من فشل المحاولات الأولى للمخاطرة. وفي المقابل، نعلم أن كثيرًا من الناس يحبّون الشخص المخاطر، ولكنهم في الوقت نفسه ينتقدونه إذا ما فشل. وهنا نقول إن على مَن أراد أن ينطلق نحو المجهول، أن يعرف أنه سوف يكون وحيدًا ولن يحمل أحد أعباء فشله. لكن في التعليم المسألة تختلف؛ لأن المعلمين، ببساطة، يخططون لمواقف التعلّم التي تتضمن مخاطرة في ضوء معارف المتعلّمين السابقة مما يجعله حالة مخططة من التعلّم والنمو المعرفي والعقلي".

أما عادل فقد أوضح أهمية المخاطرة المسؤولة، فقال: "يؤكد الشخص المُخاطِر قدرة الإنسان على تحدي الحواجز التي ألّفها الناس، ومنعتهم من تجاوز مصاعبهم ومشاكلهم. ولو تأملنا حياة كثير من العلماء عبر التاريخ، لوجدناها لا تخلو من المخاطرة والإقدام، ونجدهم لا يبالون بما يتعرضون له صعوبات. لكنه يغلب على ظنّهم أنهم سينجحون، ويتفاءلون كثيرًا بالنجاح. وهنا تبرز أهمية المخاطرة المسؤولة، في أنها تصبح فرصة عظيمة ونادرة للتعلّم، تُكسب الفرد خبرات جديدة ثرية".

وأضاف: "في ثقافتنا العربية نجد أمثلة كثيرة، لعل أبرزها مخاطرة العالم العربي "عباس بن فرناس" الذي طار لأول مرة في التاريخ من على مئذنة في مدينة قرطبة مستخدمًا عباءة محشوة بمواد خشبية. وقد كانت عباءته أول مظلة في التاريخ. وهذا شجعه على اختراع آلة أخرى من الحرير وريش النسور وطار بها من أعلى جبل، وبقي في الجو لمدة عشر دقائق ثم سقط. واكتشف فيما بعد أن سبب سقوطه يعود إلى عدم صنع ذيل لطائرته؛ وهذه مخاطرة يسرت اكتشاف الطيران بعد ذلك".

يقال إنه بينما كان البعض يناقشون سبب موت عباس بن فرناس: منتحرًا مات أم شهيدًا !، كان البعض الآخر يتساءل: هل يمكن الطيران؟ وهذا يوضح بجلاء الفرق بين المخاطرين الذين يسجلون مكانهم في التاريخ، وغير المخاطرين الذين لم يسمع بهم أحد!.

تنمية المخاطرة المسؤولة

بعد أن أكمل عادل حديثه، انتقل الحديث إلى مُهجة، التي أوضحت البُعد النفسي لهذه العادة، فقالت: "يتضمن الإقدام على المخاطرة المسؤولة حُب المغامرة. وحُب المغامرة هنا، هو عدم الخوف من الفشل، وكما يقول الشاعر: "ومن لم يرم صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر". أما الخوف من الفشل، فيقتل الإبداع في نفس الإنسان، فلا بد من مواجهة المسؤولية بشجاعة. ويكون المتعلّمون، في العادة، أكثر ميلاً للإقدام على المخاطرة المسؤولة إذا توافرت لهم بيئة تعليمية آمنة متحررة من إصدار الأحكام والعقاب، ويتم فيها تقبل وجهات النظر المختلفة".

وهنا تحدث سند متناولاً دور المنهج المدرسي في نمية المخاطرة المسؤولة، فقال: "يمكن للمنهج المدرسي والمعلمين تنمية المخاطرة المسؤولة لدى المتعلّمين من خلال توفير مواقف تتطلب من المتعلّمين المخاطرة، شرط أن تكون تحت إشراف المعلمين مباشرة، حتى إذا ما فشلوا في أول محاولة؛ يعمل المعلم المعالجات المناسبة، ثم يشجعهم على الاستمرار للوصول إلى نتيجة إيجابية؛ عندئذ سوف تتغير المخاطرة إلى متعة وتتجدد وتتطور".

وكانت إلهام آخر المتحدثين، مستعرضةً تنمية هذه العادة لدى المتعلّمين، فقالت: "تأكد لنا أن من أنجع طرق تجريب المخاطرة المسؤولة هي التعلّم بالاكتشاف، والتجريب العملي، والعمل الجماعي، حيث يمكن للمعلمين أن يوفروا لطلابهم مواد وأدوات متنوعة للقيام ببعض التجارب في ضوء خطط محكمة، إما فرديًّا أو جماعيًّا".

ثم رصدت عددًا من الخطوات لتنمية المخاطرة المسؤولة عند المتعلّمين، وهي:

١ - إيجاد بيئة تعلّم تسمح بتجريب أشياء جديدة، نتائجها غير معروفة سلفًا.

٢ - اختيار حادثة أو ظاهرة تثير التساؤل والبحث عن تعليل أو تفسير لدى المتعلّمين، مثل الظواهر الغامضة، والتي لا يعرفون أسبابها أو تفسيرات لها، حيث تكون الظاهرة المستهدفة على درجة من الأهمية والغموض، فتستثير دهشة المتعلّمين أو استغرابهم؛ على نحو يحول من دون ظهور اللامبالاة لديهم .

٣ - إدارة حوار تعليمي على نحو يمكّن المتعلّمين من تحديد جوانب الظاهرة – موضوع البحث– وشروط حدوثها، وتنظيم هذه الحقائق على نحو منطقي يسهل عمليات التفسير والضبط والتوقع.

في الأخير، شكر قائد زملاءه، ثم استأذنهم بتلخيص أبرز ما جاء في اللقاء، وكتب الآتي:

١ - المخاطرة المسؤولة هي أن يتقبل الفرد بذل جهود صادقة ودؤوبة لاستكشاف البيئة المحيطة من حوله، وامتلاك الشجاعة لتحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها، والنتائج المترتبة عليها.

٢ - يمتلك الإنسان المخاطر، قدرة على تحدي الحواجز التي ألفها الناس، ومنعتهم من تجاوز مصاعبهم ومشكلاتهم.

٣ - يمكن للمنهج المدرسي والمعلمين تنمية المخاطرة المسؤولة لدى المتعلّمين من خلال توفير مواقف تتطلب من المتعلّمين المخاطرة، شرط أن تكون تحت الإشراف المباشر للمعلمين.

٤ - يكون المتعلّمون، في العادة، أكثر ميلاً للإقدام على المخاطرة المسؤولة، إذا وُفرت لهم بيئة تعليمية آمنة، متحررة من إصدار الأحكام والعقاب، ويتم فيها تقبل وجهات النظر المختلفة.

-٩ أنجع طرق تنمية المخاطرة المسؤولة هي التعلّم بالاكتشاف، والتجريب العملي، والعمل الجماعي، ويجب أن يوفر خلالها المعلمون لطلابهم مواد وأدوات متنوعة للقيام ببعض التجارب في ضوء خطط محكمة، إما فرديًّا أو جماعيًّا.

المخاطرة المسؤولة



تعني تكوّن دافع قوي لدى الفرد، يصعب السيطرة عليه مما يدعوه للانطلاق إلى ما وراء الحدود المستقرة، وعدم الارتياح للهدوء، ومواجهة مواقف لا تُعرف النتائج التي ستتمخض عنها، وقبول الارتباك والتشويش وعدم اليقين وارتفاع مخاطر الفشل، والنظر إلى النكسات على أنها مثيرة للاهتمام وتنطوي على التحدي، وتساعد على النمو والتطور، منطلقين من أرضية معرفية صلبة؛ ترتكز على المعارف السابقة.

ثم تقدم منير واختتم اللقاء، مجدداً الشكر لزملائه على الجهود التي يبذلونها، وعلى تعاونهم معه في ترتيب هذه اللقاءات وإدارتها. ثم عرض عليهم ملخصاً لاستراتيجيات تنمية عادات التفكير المنتج، أوجزها في الجدولين الآتيين.

وقبل أن ينصرفوا، أكد عليهم ضرورة تخصيص لقاء لاختتام سلسلة اللقاءات المثمرة هذه، ليذكُر كل منهم ماذا يريد من التعليم في بلاده أن يصير في المستقبل. وافق الجميع على المقترح، وكلفوه بالتنسيق لذلك اللقاء، ومن جانبهم وعد كل منهم أن يُعد أفكاره مسبقاً لهذا اللقاء الختامي والمهم.

جدول رقم (١)

ملخص استراتيجيات تنمية عادات التفكير المنتج

١- عادات التفكير الأولية

عادة التفكير	استراتيجيات التعليم
حُب الاستطلاع	• عرض أشياء وأداوت غريبة على المتعلّمين. • توفير المثيرات الملائمة للنمو العقلي للمتعلّمين، وتنمية الدوافع، والاهتمام بالإجابة عن تساؤلاتهم. • إتاحة فرص التعلّم واللعب للأطفال الصغار. • تشجيع التخيل بخاصة لدى الأطفال، ونقلهم من الخيال إلى الواقع. • استضافة أشخاص مبدعين إلى قاعات الدرس.
المثابرة	• التدريب على تجريب أكثر من حلّ لمشكلة أو قضية يعالجونها. • قراءة كتاب عسير، أو إتمام مشروع معقد. • التأكيد على المعتقدات الراسخة لنشاط ما بدلاً من القناعة الفورية، والتركيز على النتيجة النهائية بدلاً من التركيز على درجة التمتع به. • تدريس استراتيجيات التعامل مع التحديات مثل التفكير في مسارات بديلة.
التحكم في التهور	• توفير برامج وأنشطة جماعية لمساعدة المتعلّمين على تحليل المشكلات، وتخطيط المشروعات بعناية قبل البدء بها. • التفكير بهدوء وبطريقة تحليلية ودراسة الموضوع من جوانب عدة. • تدريب المتعلّمين للسيطرة على العواطف المتدفقة قبل القرار، وعلى مراجعة أي قرار بهدوء قبل اتخاذه. • التخطيط لمواقف الحياة بعقلانية واتزان وهدوء. • طلب المشورة قبل اتخاذ القرار.
حُسن الإصغاء	• تدريس استراتيجيات الاستماع الفعال. • عرض المتعلّمين لما تعلّموه من نظرائهم أمام البقية في قاعة الدرس.

عادة التفكير	استراتيجيات التعليم
	• تدريب المتعلّمين على التحكم في مشتتات الاستماع الداخلية، والخارجية. • تسجيل الملاحظات أثناء الاستماع، ولكن بذكاء من خلال: الاستماع للنقاط الرئيسية، وكتابة النقاط المهمة جداً فقط، والكتابة بشكل واضح لتسهيل مراجعة تلك الملاحظات. • إظهار الاحترام والتقدير للمتحدث.
التساؤل وطرح المشكلات	• إشباع فضول المتعلّمين بشأن موضوعات التعلّم وتعزيزها بالأمثلة. • توفير الفرص والأدوات اللازمة لدعم التساؤل. • إلقاء الضوء على التساؤلات النموذجية للمتعلّمين والثناء عليها.
التفكير الجماعي	• تدريس أفكار معينة للعمل مع الآخرين، مثل: الاستماع النشط. واستنطاق أعضاء المجموعة الهادئين. • تسجيل الملاحظات أثناء عمل المتعلّمين في مجموعات صغيرة، وتلخيص الأشياء الجيدة والسيئة التي تمَّ ملاحظتها أثناء التدريس. • تعليم المتعلّمين استراتيجيات حلّ المشكلات ضمن عمل جماعي. • تسليط الضوء على إنجازات المجموعات الناجحة، والإشارة إلى الاستراتيجيات التي استخدموها في العمل.

جدول رقم (٢)
ملخص استراتيجيات تنمية عادات التفكير المنتج
٢- عادات التفكير العليا

عادة التفكير	استراتيجيات التعليم
التفكر	• تشجيع المتعلّمين على التفكر في خبراتهم التعليمية. • مناقشة استراتيجيات التفكير المستخدمة مع النظراء. • تحفيز المتعلّمين على التفكير بشأن عمليات التفكير في مراحل مختلفة أثناء العمل على مشروع ما. • تدريب المتعلّمين على الملاحظة الدقيقة، والتفكر الجماعي الموجه.
مرونة التفكير	• توضيح تغير وجهة النظر حول قضية ما بالأمثلة بعد الإطلاع على مزيد من المعلومات حولها. • تدريس استراتيجيات الخروج بحلول متعددة، ومراعاة وجهات النظر الأخرى بشأن المشكلات.
تحمل الغموض	• توفير فرص تعلّم تقتضي التعامل مع الغموض. • عرض قصص بنهايات مفتوحة، ومناقشة المتعلّمين بالاحتمالات الممكنة لاختتامها. • الطلب من المتعلّمين عرض مواقف من الحياة العامة تتضمن غموضاً.
المخاطرة المسؤولة	• إيجاد بيئة تعلّم تسمح بتجريب أشياء جديدة حتى لو لم تكن النتائج هي المرجوة. • التقليل من تبعات الفشل عند قيام المتعلّمين بمخاطرات معرفية. • اختيار حادثة أو ظاهرة تثير التساؤل، والبحث عن تعليل أو تفسير لها لدى المتعلّمين، مثل الحوادث أو الظواهر الغامضة، أي التي لا يعرفون أسبابها أو لا يجدون تفسيرات لها. • تحرير المتعلّمين من الخوف أن يقعوا في الخطأ.

الخاتمة

قدمت هذه القصة على لسان منير وزملائه، مقاربة جديدة في تحسين التعليم وتنمية التفكير، استندت إلى خبرة المؤلف، ونتائج بحوث علم النفس المعرفي، ونظرية المعرفة، وكتابات علماء بارزين؛ يستطيع أن يستخدمها القادة التربويون، وواضعو المناهج، والمعلمون، وأولياء الأمور في جميع مراحل التعليم، بدءًا من مرحلة رياض الأطفال، ومرورًا بمرحلة التعليم قبل الجامعي، وانتهاءً بالمرحلة الجامعية. والهدف من هذه المقاربة الجديدة هو تزويد المتعلّمين بأدوات تمكّنهم من تطوير أنفسهم على نحو يجعلهم قادرين على التعلّم والاستمرار فيه طوال حياتهم. وترتكز هذه المقاربة على مفهوم "عادات التفكير المنتج" التي تُعد بمثابة أدوات فعالة، أو سلوكات ذكية يستخدمها الفرد تلقائيًّا، بعد التدرب الكافي عليها فترة من الزمن، عندما يواجه موقفًا تعليميًّا أو مشكلة أو قضية ما؛ فتولّد عنده طاقة ذاتية داخلية كبيرة تنير عقله، وتشحذ همته، وتزوده بالإصرار على التعلّم لِفَهم الموقف التعليمي أو حلّ مشكلة أو إنجاز القضية".

وقبل أن تستكمل المجموعة هذه المهمة التي كلفوا أنفسهم القيام بها، بصفتهم مهنيين محترفين، يتحملون مسئولية مهنية وأخلاقية نحو تطوير التعليم في بلادهم، رتبوا هذا اللقاء الختامي ليعبر فيه كل منهم عمّا يريده من التعليم، في بلادهم، أن يصبح عليه في المستقبل.

افتتح منير اللقاء مؤكدًا أن هذا آخر لقاء تناقش فيه المجموعة رؤيتها لتطوير التعليم في بلادهم، وقال: دعونا نحلم، ماذا نريد من التعليم في بلادنا؟

هزَّ الجميع رؤوسهم بالموافقة، عندئذ واصل منير حديثه: "نريد من التعليم في مؤسساتنا التعليمية (مدارس، وكليات، وجامعات) أن يعود الى سابق عهده، يوم كنا

نتسابق كل صباح للوقوف لتحية العلم. ويوم كنا ندرُس موضوعات التربية الوطنية ورؤوسنا شامخة نحو العُلى نمتلىء فخرًا واعتزازًا بهذا الوطن العظيم. ويوم كنا نتعلّم موضوعات مادة التربية الإسلامية ولم نكن حينها نشعر بالكراهية أو الحقد تجاه بعضنا البعض، ولم نكن نرى بيننا من يُكفِّر الآخر؛ لأنه، ببساطة شديدة، لم يكن هناك في المناهج الدراسية ولا في البيئة المدرسية من معلمين وإداريين، ما يدفعنا إلى ذلك. كما أننا نريد من التعليم أن يعود إلى سابق عهده يوم كان للشهادة التي يحملها المتخرج قيمتها، ويوم كان المتعلّم يتقن المعارف والمهارات التي تلقاها في مدرسته وجامعته، ويوم كان للمعلم حظوته ومكانته في المجتمع، ويوم كان المجتمع يرفع كلتا يديه تحية لطلاب العلم والمعلمين".

بعد ذلك طلب قائد الحديث ليصف حلمه حول ما الذي يريد من التعليم، فقال: "على الرغم من كل الاحباطات التي يواجهها مجتمعنا، فما زال يُعوّل كثيرًا على التعليم في إعداد أبنائه وبناته للمستقبل الإعداد المنتظر منه. وينظر مجتمعنا إلى المؤسسات التعليمية بصفتها أدواته الأولى التي يسند إليها مهمة إمداده بعقول شابة متعلّمة ومفكرة، ويريد منها أن تحتضن العقول المبتكرة، وتعدّهم لأن يصبحوا باحثين ومفكرين قادرين على الإسهام في تطوير المعرفة ونشرها. لذلك نريد من مؤسساتنا التعليمية أن تحمل على عاتقها هذه المسئولية الكبيرة، مسئولية إعداد كوادر وطنية قادرة على تحويل المعارف والمهارات التي تكتسبها في مؤسساتنا التعليمية إلى منتجات تُدر على البلد مكاسب معرفية ومادية متنوعة، ما يعيد لهذا الشعب العظيم مكانته المرموقة بين الأمم. باختصار: نحن بحاجة إلى الرقي بالتعليم إلى مستوى تطلعات المجتمع بجميع مكوناته".

بعد ذلك طلبت مُهجة الحديث، فقالت: "تعلّمون أن النظرة المعاصرة للذكاء، ترى بأنه ديناميكي وليس استاتيكي. وهذا يفتح آفاقًا كبيرة أمام المعلمين من مدرسين وأساتذة جامعات؛ لتطوير التفكير والذكاء وزيادة تحصيل المتعلّمين. لذلك نريد من

منظومتنا التعليمية أن تُسهم في مواجهة تحديات كبيرة تواجه بلادنا منها مكافحة الجهل، والتغلب على انتشار البطالة، وإنهاء كثير من القيم البالية مثل الجريمة والثأر، والحد من الزيادة السكانية الكبيرة، وزيادة التحاق الفتاة بالتعليم، بخاصة في الريف. وهذا لن يتحقق إلا من خلال تعزيز دافعية التعلّم لدى المتعلّمين. لذلك نريد من قادة الفكر التربوي، ومناهجنا الدراسية، ومعلمينا تحريك عقول المتعلّمين نحو عملية التفكير والتعلّم بتنمية عادات التفكير المنتج لديهم".

ثم تحدث سند عن حُلمه التعليمي، فقال: "تقتضي مهمة التربية والتعليم استثمار طاقات المتعلّم العقلية، وتوظيف كل الظروف المحيطة، والمواد والأدوات من أجل فهم إمكانات جسمه وعقله وحواسّه، وإعمال الذهن للوصول إلى اكتساب المعرفة المنشودة. وهذا لن يتحقق من خلال حشو العقول بالمعلومات والمعارف الصرفة، بل من خلال تنمية سلوكات ذكية تتمثل في عادات التفكير المنتج التي تنمي العقل وتسرّع من التعلّم. لذا فنحن نريد من المناهج الدراسية أن تتحدى عقول المتعلّمين وتشركهم بإيجابية في عملية التعليم، وأن تتدرج في مستواها من مستو دراسي لآخر بحيث لا يصل الطلاب إلى التخرج إلا وقد نمو عادات التفكير المنتج، واكتسبوا المعارف والمهارات التي تؤهلهم للولوج إلى سوق العمل بثقة واقتدار".

أما إلهام، فعبرت عن حلمها بالقول: "نريد إحداث تغييرات حقيقية وعميقة في طريقة إعداد هذا الجيل، تغييرات في أساليب التعليم والتقييم التقليدية – التي لا تنمي سوى الذاكرة – إلى أساليب تعليم وتقييم تحترم عقول المتعلّمين، وتوفر فرص تعليم تنمي جميع جوانب العقل من معارف، ومهارات تفكير، ومهارات معرفية، وعادات تفكير منتج، واتجاهات وقيم إيجابية. وهذا لن يتم إلا من خلال التعلّم النشط الذي يساعد على اندماج المعلومات الجديدة بصورة حقيقية في عقول المتعلّمين، بما يساعد على تنمية ذكائهم. إننا نريد من معلمينا، فى جميع مراحل التعليم، أن يؤدوا واجباتهم بتفانٍ

وإخلاص شديدين. وأن يؤمنوا بأهمية الرسالة التى يؤدونها نحو طلابهم، وتجاه مجتمعهم".

كان عادل آخر المتحدثين، فعبر عن حلمه وطموحه من التعليم، قائلاً: "أبدأ حديثي بعبارة شهيرة تقول: "يوم الامتحان يكرّم المرء أو يهان". لذلك أقول إن مؤسساتنا التعليمية اليوم على المحك، فنحن نريد منها أن تُعد جيلاً قويًّا معرفيًّا، قادرًا على المنافسة محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا. نريد منها البدء بتنمية الأفعال والسلوكات والاتجاهات عند المتعلّمين قبل تنمية الحقائق والمعارف، وهي تلك المتمثلة في عادات التفكير المنتج، بصفتها أنماطًا ذكية من التفكير والتصرفات، تظهر عند مواجهة المشكلات والأزمات في الحياة. ونريد من الامتحانات أن تعبّر بصدق عن مستوى الطلاب، بحيث لا يُكتسب النجاح إلا عن جدارة، فلا يحصل الطلاب إلا على الدرجات التي يستحقونها. إذ إننا لا يمكن أن نصل إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى ما لم نُعد جيلاً يمتلك أدوات عقلية تصنع منه جيلاً مقدامًا قادرًا على التعامل مع تحديات العصر، جيلاً يجيد التعلّم والتفكير والابتكار والإبداع، جيلاً يتقن طرق اكتساب المعرفة وإنتاجها، وتحويلها إلى منتجات تسوق محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا".

واختتم الجميع لقاءهم الختامي هذا، بالشكر الجزيل لزميلهم منير على فكرته من عقد هذه اللقاءات والتنسيق والإعداد الجيد لها، وكذلك على الجهود التي بذلها في تلخيص أهم الأفكار التي وردت في لقاءاتهم المتعددة. وتمنوا أن يروا حلمهم وقد تحقق في تحسين التعليم وتجويده على أرض الواقع. وتوجهوا بدعوة إلى جميع التربويين وأفراد المجتمع المهتمين بالتربية والتعليم، لمدِّ يد العون للنهوض بالتعليم في بلادهم؛ كونه يشكّل الطريق الأمثل لمستقبل أفضل، فلا طريق سواه.

وأقروا العبارة التي اقترحها زميلهم سعيد عنوانًا لهذه الدعوة:

أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلم المستقبل.



رحلة في دنيا المعرفة

أنيروا عقول المتعلمين قبل أن يُظلِم المستقبل

قصة تروي رحلة تعلُّم طويلة امتدت نحو خمسين عاماً، استخلص منها المؤلف مقاربة جديدة في تحسين التعليم وتنمية التفكير. وتهدف هذه المقاربة إلى إكساب المتعلمين منهجية فعالة، ترتكز على عادات التفكير المنتج بوصفها سلوكات ذكية توقظ عقول المتعلمين، وتنشّطها، وتوجه اهتمامهم لاكتساب معارف جديدة؛ حيث يكونون قادرين على عيش حياة كريمة هانئة، وليصبحوا أعضاءً فاعلين في مجتمعهم، وقادرين على دفع عجلة التنمية المستدامة في بلادهم إلى الأمام.

وتفيد هذه القصة التربويين وأولياء الأمور وقادة المجتمع المهتمين بالتربية والتعليم، للنهوض بالتعليم في جميع مراحله: رياض الأطفال، ومروراً بالتعليم الأساسي، ثم التعليم الثانوي، وانتهاءً بالتعليم الجامعي.



